التخلف

في العالم الإسلامي

بين الداء والدواء

تأليف

الدكتور محمد شامة

يطلب من :

ت : ٢٤٩٥٧٨٣ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وأمرهم شورىٰ بينهم ﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اشتد النقاش في جلسة خاصة حول موقف الإسلام من معطيات العصر الحضارية ، إثر امتناع بعض الحاضرين عن استعمال الأدوات الحديثة في تناول الطعام ، فذهب بعضهم إلي تأييد الذين فجروا النقاش بسلوكهم ، بحجة أننا مطالبون باتباع رسول الله ﷺ كما جاء في قوله تعالي :

﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ (١).

وعارضهم آخرون مستدلين علي رأيهم بأن السلوك والعادات تختلف من بيئة إلي أخري ، وتتطور طبقا لتغير أشكال الحياة وملابساتها ، أما الأسوة برسول الله ﷺ فتنحصر في العبادات والسلوكيات التي نص رسول الله ﷺ علي وجوبها ، وما عدا ذلك فقد ترك الالتزام بها مفتوحا ، حتي يتاح للمسلم حرية الحركة في عالم يموج بالمتغيرات التي تقضي علي من لا يستطيع التعامل معها بحكمة واقتدار .

ثم تساءل بعضهم عن موقف الإسلام من بعض ظواهر الحياة الحديثة ، مثل:

- الديمقراطية .
- تعدد الأحزاب السياسية .
- الانفتاح علي ثقافات الشعوب الأخري.
- حرية التعبير .

---

(١) سورة الممتحنة : ٦ .

فاشتد الجدل بين من يحرم هذه الظواهر ، بحجة أنها فكر غربي علماني ، وبين من يرى أن الإسلام يدعو إليها تحت مسميات أخري مثل الشوري في مقابل الديمقراطية ، والدعوة إلي الاجتهاد الذي نتج عنه تعدد الآراء وتنوع الرؤى ، وهو لا يخرج عما نراه في تعدد الأحزاب في المجتمع المعاصر ، كما حث الإسلام علي تقبل كل ما ينفع الناس بصرف النظر عن مصدره ، وذلك في قول رسول الله ﷺ :

« **الحكمة ضالة المؤمن ، حيثما وجدها فهو أحق بها** » (١).

بالإضافة إلي أنه لم يكره أحداً علي اعتناق ما يرفضه ، يقول تعالي :

﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ (٢).

وبسبب غياب المنهج في النقاش لم يهتد المراقبون في هذه الجلسة إلي الجواب الصحيح ، لأن كل فريق من المتحاورين حاول السيطرة علي مجرى النقاش بعلو الأصوات ، وإلصاق التهم ، فتبادل الفريقان أقذع الشتائم وأفظعها ، فاتهم أناس بالزندقة ، والكفر ، والعلمانية ، ونسب إلي آخرين : الجمود والتخلف ، والتطرف ، والإرهاب الفكري ، والعجز عن فهم الإسلام في ظل معطيات العصر ، حتي أصبح غير المسلمين - بل وكثير من المسلمين أيضا - يرون أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين ، ولن يتقدموا إلا إذا تحرروا منه .

وعندما هدأت النفوس بدأت أشرح لهم : معني التخلف ، وموقف التيارات الإسلامية في المجتمع المعاصر من بعض الظواهر الفكرية ، موضحا الرأي الصحيح - كما أفهمه من تعاليم الإسلام - فيما يدور من نقاش حول الديمقراطية ، وتعدد الأحزاب ، والتعامل مع معطيات العصر الحضارية ، والإنفتاح علي الثقافات الأخري ، وحرية الفكر ، وموقفنا من التراث ، وغير

---

(١) ابن ماجه : الزهد ١٥ .   (٢) البقرة : ٢٥٦ .

ذلك من الأمور التي كثر الجدل حولها .

وها أنذا أقدمها للقارئ إسهاماً في بيان ما اختلط علي الناس فهمه ، وتوضيحا لرأي الإسلام في أهم العناصر التي يقوم عليها تقدم الشعوب وحضارات الأمم .

والله أسأل أن يوفق الجميع إلى ما فيه صلاح ديننا ودنيانا .

إنه سميع مجيب .

محمد عبد الغني شامة

تمهيد

أصبحت كلمة « تخلف » من أكثر الكلمات المستعملة في أحاديث الناس في هذا العصر ، سواء كانت تلك الأحاديث مجرد « دردشة » في المجالس والمنتديات ، أو محاضرات علمية وندوات ثقافية ، يتصدر للحديث فيها جهابذة العلماء وكبار المتخصصين في شتى مجالات المعرفة .

بل يكاد يحرص كل متحدث - حتي ولو كان أمياً - علي ترديدها في أحاديثه مع الآخرين ، وإبرازها بشكل واضح فيما يريد توصيله لهم من رسائل، وما ذاك إلا لما ترسب في أذهان الناس من الشعور بالنقص والدونية ، لو شعر لحظة بأن هذه الكلمة تنطبق عليه ، أو أنه من أفراد شعب تقاعس وتخلف عن ركب الحضارة التي سبقته فيه دول وشعوب متعددة .

ولم تحظ هذه الكلمة بهذا الاهتمام الشديد علي مستوى الأفراد فحسب ، بل أصبحت مدار السياسات الدولية ، ومركز الخطط التنموية علي جميع مستوياتها وتشعب مجالاتها ، إذ نري كل المخططين في مجال الصناعة يضعون في اعتبارهم - عندما يرسمون الخطط المستقبلية -. درجة تخلفهم في القدرات والموارد البشرية والمادية عمن سبقهم ويبحثون عن أحسن السبل وأسرعها للحاق بمن سبقهم - أي للتخلص من التخلف عن غيرهم - أو لتقليل الفجوة بينهم وبين من تفوقوا عليهم في هذا المجال .

ولا يقتصر الأمر علي المهتمين بالمجال الصناعي فقط ، بل يشمل جميع المجالات ، بما فيها المجال الثقافي ، بل إن الثقافة تعتبر نقطة الانطلاق إلي الأمام ، فعليها تدور كينونة الأمة - وكذا الأفراد - وبلورة وضعها في مجالي: التخلف والتقدم .

« فالتخلف ظاهرة تصيب النمو في بعض المجتمعات ، وتعني بطء الحركة في تحقيق النمو الذاتي لها (وليس في اللحاق بغيرها) وهي تنبع أصلا من تأثيرات تفاعلية خارجية (وليست متأصلة في كيان المجتمع بيولوجياً أو وراثياً) تتجسد في سوء استغلال الطاقات المادية الكامنة، وضعف التركيب الاجتماعي، والإطار الثقافي القائمين ، وعدم كفاية النظام السياسي في تحقيق استقرار المجتمع » [1].

وقد أطلق علي هذه المجتمعات اصطلاح الدول المتأخرة « ***Backward Countries*** » ويقصد به تلك الدول التي لم تصل إلي مستوي مرتفع من التقدم الفني والاقتصادي ، أو هي التي تسودها المستويات المنخفضة من التقدم الاقتصادي والتكنولوجي بحيث يترتب علي ذلك شيوع الفقر بين سكانها .

وعندما ظهر أن هذا الاصطلاح لا يوضح الأبعاد الحقيقية لمشكلة التخلف ، استبدل باصطلاح جديد هو الدول المتخلفة « ***Underdeveloped Countries*** » وهو تعريف ساد الكتابات الاقتصادية مدة طويلة ، وعرفت الدول المتخلفة بأنها الدول التي تنخفض فيها مستويات المعيشة عن تلك المستويات السائدة في أوربا الغربية وأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلاندا . . إلخ . غير أن البعض اعترض علي هذا التعريف علي أساس أنه تعريف ينقصه الشمول ، ومن ثم نادي بأن يطلق علي هذه المجموعة من الدول : « الدول المتخلفة المتأخرة » حتي يكون التعريف جامعاً مانعاً ، ذلك أن مفهوم التخلف إنما ينصرف - في نظر هؤلاء - إلي الموارد المادية وعدم استغلالها استغلالاً كاملاً ومنتجاً . أما التأخر فينصرف إلي قدرات القوي البشرية السائدة في هذه المجتمعات وعدم استطاعتها القيام باستغلال الموارد المادية استغلالاً منتجاً ، ومن ثم لابد من ذكر هاتين الصفتين معا .

---

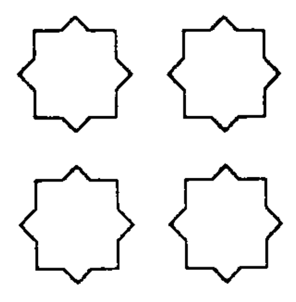
(١) د. محمود الكردي « التخلف ومشكلات المجتمع المصري » ص ١٤.

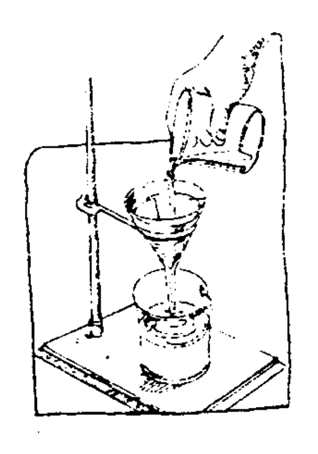
ولم يسلم هذا الاصطلاح من الاعتراض علي أساس أنه لا يفرق بين الركود والنمو ، أضف إلي ذلك أنه يعطي الانطباع العام بسيادة الركود في هذه المجتمعات وهو أمر لا يتفق وحقيقة واقع هذه المجتمعات ، ولذا حاول بعض الكتاب إحلال اصطلاح الدول المتخلفة باصطلاح الدول النامية وساعد ازدياد عدد أعضاء الدول المستقلة حديثا في المحافل الدولية (كالأمم المتحدة) علي شيوع هذا الإصطلاح ، بحيث أصبح أكثر قبولاً لأسماع أبناء تلك الدول عن اصطلاح الدول المتخلفة ، أو المتأخرة ولما كان النمو حقيقة تشترك فيها كل من الدول المتخلفة والمتقدمة ، حاول البعض استخدام اصطلاح : « العالم الثالث »[1].

وعلي الرغم من تعدد المسميات فإن من المسلم به أن أسباب هذه الظاهرة تكاد تنحصر في الوضع الاقتصادي ، ودرجة كثافة السكان ، ونوعية ثقافتهم، وأسلوب حياتهم الاجتماعية ، وشكل نظامهم السياسي ، ولا يعنينا في بحثنا هذا الحديث عن الاقتصاد والانفجار السكاني ، ومدي تأثيرهما وتأثرهما بالوضع في العالم الثالث ، لأن ذلك خارج عن إطار هذا البحث ، كما أننا لن نتناول ما يتعلق بالدول غير الإسلامية في هذا المجال . لأن الغرض من هذا البحث هو إلقاء الضوء علي بعض مظاهر التخلف في العالم الإسلامي ، وكيفية التعامل معها في مجال الدعوة .

---

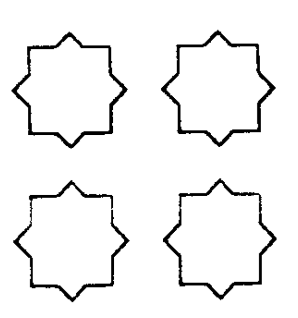
(١) قارن : د. عمرو محي الدين : « التخلف والتنمية . . » ص ٣٠،٣١.

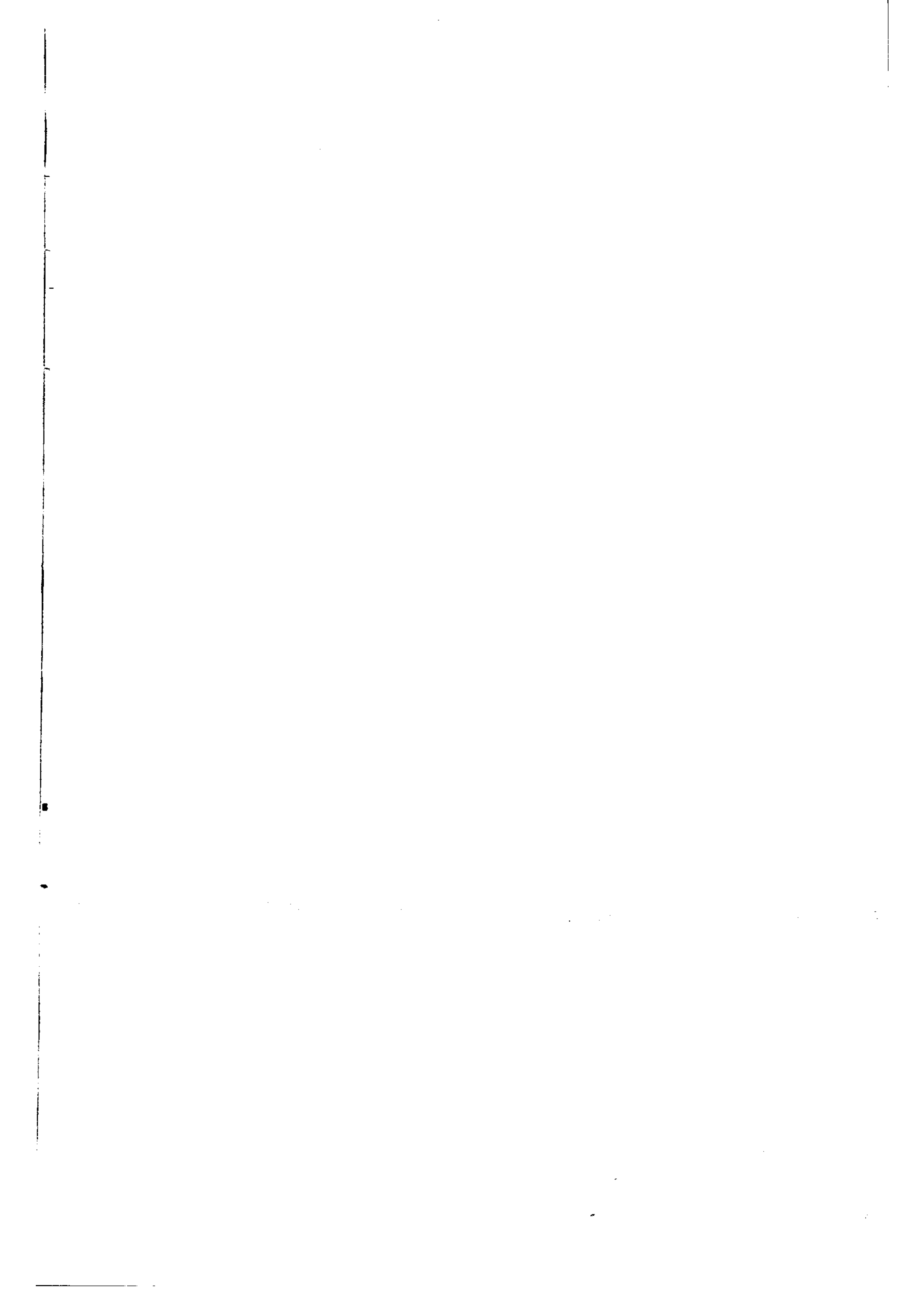




الفصل الأول

أسباب التخلف





أسباب التخلف

كثر الحديث في الآونة الأخيرة - علي جميع المستويات الثقافية في العالم الإسلامي - عن التخلف ومظاهره ، فظهرت الكتب والمقالات حول هذا الموضوع ، بعضها يحلل هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية ، باحثاً عن أسبابها وملابساتها ، شارحاً صورها ونماذجها ، متلمساً منافذ التخلص منها برسم مناهج خاصة ، وتوضيح أساليب معينة ينبغي علي الفرد ممارستها ، ووضع استراتيجية محددة للمؤسسات الرسمية والشعبية تلتزم بها إذا كانت جادة في دعوتها إلي الأخذ بأسباب التقدم لبناء مستقبل يجد فيه المسلم مكانا بين الشعوب ، التي تأخذ بزمام الحضارة ، وتتحكم في مسار المستقبل فتوجهه إلي ما يعود علي أفرادها بالرخاء الاقتصادي ، مع الحفاظ - بقدر الإمكان - علي سلامة الفرد نفسيا واجتماعيا .

واهتم البعض الآخر بالجانب الوجداني اهتماماً زائداً ، فأرجع أسباب التخلف إلي الجانب الروحي في المجتمع ، حيث فرط الفرد في واجباته الدينية، وتهاون في الالتزامات التي فرضها الدين عليه إزاء نفسه وأسرته ومجتمعه ، فتنج عن ذلك إهمال في العمل ، وتفريط في حقوق الغير ، بل اعتداء عليها ، مما ساعد علي ظهور الكسل ، وعدم الالتزام ، والغش ، والخداع ، والنفاق ، والمداهنة . . . حتي فيما يتعلق بصورة العبادات ، إذ أصبحت رياءً وتظاهراً ، بل وسيلة إلي الكسب غير المشروع ، وأسلوباً من أساليب التظاهر بالتقوي والصلاح أمام من بيده المنح والمنع ، وفي حضرة من يملك المال والعطايا ، وتحت إمرته صكوك الحياة ، ومراسيم المنصب والسلطان، ولعل أبلغ تعبير عن السلبية التي سادت المجتمعات الإسلامية هو القول السائد : « دعوه يئن » . . . فقد أصبح مفهوم هذا التعبير « موقفاً كاملاً

إزاء العلل والأسقام ، فالصوفية كانت طيلة قرون الانحطاط تضمن لمتبعيها حياة روحية عالية ، وعلاقات أخوية صادقة بينما أمواج الظلم والظلمات تتلاطهم وتزمجر ولا أحد يبدي حراكاً ويبقي المجتمع يئن ولا مغيث.

هذا هو المنهاج : تربية روحية عالية والمجتمع منبوذ يئن ، ثم انتقل هذا المنهاج إلي الإسلاميين المعاصرين ، إنهم أدركوا وجود مرض ولكن الشفاء عز. وحين كان يوجه إليهم سؤال : ماذا قدمتهم للمريض الكبير ؟ يأتي الجواب جازماً « دعوه يئن » فإنه جاهلي ، سوف نربي أنفسنا ثم نري بعد ذلك، ويتواصل الأنين . . . « دعوه يئن » منهاج وعقلية . . . فلا دراسات ولا تحليلات ولا إمكان لتطوير الأوضاع بناءً علي برامج مرحلية ، وإنما هو الإعراض والرفض .

« دعوه يئن » إنه موبوء فلا تقربوه .

ولم يتعد الأمر رفع شعارات عامة مثل شعار « عم الفساد » أو « الإسلام هو الحل » .

والشعارات كالمسكنات تصلح لفترة . . . ثم تتوقف عن التأثير ويكتشف العليل أن مرضه تفاقم »[١].

واحتل الهجوم علي المؤسسات التنفيذية مساحة كبيرة لدي أصحاب هذه الدعوة ، إذ صب كتابها جام غضبهم علي الحكام والأمراء ، ولم يسلم منهم أحد يتولي أمراً من أمور المجتمع . . . حتي المعلمون في المدارس والجامعات ، والوعاظ ورجال الدين الذين لم ينهجوا نهجهم في المعارضة . . وتوجيه النقد إلي كل من يعترض طريقهم ، أو يخيل إليهم أن في الهجوم عليه تقرباً إلي الله ووسيلة إلي بلوغ أهدافهم .

أما الفريق الثالث من المتناولين لهذه الظاهرة - ظاهرة التخلف - بالشرح

---

(١) بورجا ص ٣٥.

والتحليل ، فهم أولئك الذين رفعوا راية التمرد علي الدين ، إذ يرجعون أسباب تخلف العالم الإسلامي إلي التمسك بالدين ، فهم يرون أن السلفية تشيع في المجتمع المتخلف ، فأفراده يرضخون للتقاليد والأعراف ، ويحتمون بالماضي وأمجاده ، وتتفاوت درجة تمسكهم بالقديم « بمقدار درجة القهر التي تمارس علي إنسان العالم المتخلف ، وبمقدار إحساسه بالعجز والضعف والغلبة علي أمره إزاء غوائل الطبيعة وعنت المتسلطين وهي لذلك تشكل أولية دفاعية إزاء تحديات لا قبل له بها ، تشل مبادراته في الحاضر ، وتسد أمامه آفاق الخلاص المستقبلي » .

وبعضهم يخفف من لهجته فيري أن سبب تخلف المسلمين هو تمسكهم بالتراث - وليس بالمحافظة علي الدين - ورفضهم أساليب الحضارة الحديثة ، إذ يرفض المتشددون التعامل مع كل مظهر حضاري ، ويضعون القيود علي سلوك الناس مما يشل حركتهم ، ويعوق تقدمهم ، ويبعدهم عن الأخذ بأسباب التقدم والرقي ، ظنا منهم أن ذلك يحميهم مما يسمونه غزواً يهدد كيانهم ويمحو هويتهم ، فالتمسك بالتراث يحصنهم ضد غزو متسلط خارجي ، هذا التسلط يشكل تهديداً كيانياً لمن يغزوهم في هويتهم القومية . . وتراثهم وانتماءاتهم ونظرتهم إلي الوجود . إنه يحمل خطر الاندثار وفقدان الوعي الذاتي . فإذا عزت المقاومة المسلحة ، وانتفت إمكانية المجابهة المباشرة ، لا يبقي أمام الشعب المقهور سوى الاحتماء بالتراث والتمسك بالتقاليد ضد الغزو الفكري والنفسي ، ضد الغزو الحضاري ، ويشتد التمسك بهذه التقاليد بمقدار وطأة الاستعمار الحضاري ، ويستمر طالما عزت المقاومة المسلحة ، وطالت فترة الاستعداد للتحرير ، وتخف حدة التمسك بالتقاليد ويزداد الانفتاح علي عوامل التغيير والتحديث بمقدار الاطمئنان إلي القوة الذاتية ، وبمقدار الشعور بالحماية وانخفاض حدة التهديد الخارجي » [1].

---

(١) مصطفي حجازي ص : ١٠٨.

ولما كان التمسك بالتراث - في نظر هؤلاء - ليس إلا وسيلة لاحتماء الضعيف الذي يشعر بالتهديد ويحس بأن كيانه معرض للذوبان في خضم التيارات المتجددة ، ولا ينتج عنه سوى التقوقع علي الذات مما يزيد التخلف والانحطاط ، فهم ينادون برفض كل ما يمت إلي الماضي بصلة ، بل يحاربون كل من يتمسك بالتراث ويسدون الطريق في وجهه ، ظناً منهم أنه سوف يعوق حركة التقدم لو تقلد منصباً يمكنه من ذلك .

وهناك فريق رابع آتاه الله بصيرة نافذة ، وفكراً سليماً ، وفهماً واضحاً للمتغيرات الدولية ، كما فقه تعاليم الدين ، ففرق بين الثابت منها والمتغير ، ووضح الخطوط التي تفصل بين الواجب برسمه ونصه ، وبين ما تتطلبه الظروف وتحتمه الأعراف والتقاليد الاجتماعية ، فبذل جهداً جباراً ، وما يزال الكثير من أفراد هذا الفريق يعمل ليل نهار في شرح تعاليم الإسلام ، وبيان فرائضه بما يتناسب مع ظروف العصر ، ويساعد علي دفع عجلة التقدم في المجتمعات الإسلامية . . فظهر عمله في صورة إسلامية خالصة من شوائب خرافات وأساطير القرون الأولي ، وبعيدة كل البعد عن معوقات التقدم التي ورثتها المجتمعات الإسلامية، عن عقائد السابقين ، سواء كانت نصوصاً تسربت إلي المرويات الإسلامية ، أم عادات وتقاليد تغلغلت في سلوكيات المسلمين وأنشطتهم عن طريق من دخلوا في الإسلام من أهل العقائد السابقة[1] .

---

(١) من التيارات التي تمثل هذا الاتجاه بشكل مقبول في الأوساط الفكرية المعاصرة ما أطلق عليه د. محمد عابد الجابري « السلفية الوطنية في المغرب » حيث عرف لنا في بحثه - الذي قدمه لمنتدي العالم الثالث تحت عنوان « الحركة السلفية والجماعات الدينية المعاصرة في المغرب » مضامين هذه السلفية نقلا عن علال الفاسي كما يلي : « لأن السلفية في باعثها الحنبلي ترمي لتطهير الدين من الخرافات التي ألصقت به والعودة إلي روح السنة المطهرة فإنها لا تقصد من وراء ذلك إلا تربية الشخصية الإسلامية علي المبادئ التي جاء بها الإسلام بصفته المتكفل بصلاح الأمة في دينها ودنياها (. . .) =

ولو ترك المجال لهذا الفريق دون معوقات دبر لها بليل ورسمت خطوطها علي مستوي دولي - وإقليمي أيضا - وتقف وراءها قوي عظمى ترتعد منها فرائص الشجعان ، ويجري في ركابها الجبناء والمنافقون ويخطب ودها المتنفعون، وعبدة الجاه والسلطان . . . لولا هذا كله لأثرت الجهود في توضيح الفكر الصحيح للجماهير ، فاقتنعوا وآمنوا ، وأطاعوا ، فبذلوا كل ما لديهم من طاقات روحية ومادية للخروج من مأزق التخلف الذي يطبق علي عنق العالم الإسلامي حتي كاد أن يموت خنقا . . لولا هذا كله لوجدنا عالماً إسلامياً يرفع راية التقدم بروح إسلامية ويتقدم في ركب الحضارة تميزه عن غيره روح وأخلاق الإسلام ، فيعيد التوازن إلي ركب الحاضرة المعاصرة ، ويخلصها من شوائبها وينقيها من الأمراض التي تنخر في عظامها.

= وبذلك فهي تتناول نواحي المجهود الفردي لصلاح المجتمع وتتطلب فتح الذهن البشري لقبول ما يلقي إليه من جديد وقياسه بمقياس المصلحة العامة » وهكذا فـ «الجديد لم يعد بدعة كما كان الشأن مع السلفية الوهابية ، وهو يقبل ليس فقط لكونه له أصول سابقة في الإسلام كما تري السلفية النهضوية ، سلفية الأفغاني وعبده ، بل إنه يقبل أيضا عندما تقره المصلحة العامة ، وهكذا فلما كانت المصلحة العامة التي تقوم عليها تربية الشخصية الإسلامية إنما تبني علي تقوية التضامن بين الجماعة الإسلامية ، فإن هذا التضامن يجب أن يقوم ليس فقط علي الإخاء الإسلامي بل أيضا علي الإخاء الإنساني . . . » وذلك ما يستوجب كثيرا من التسامح مع المخالفين في الوقت الذي يدعو للوقوف صفا واحدا في الدفاع عن الإسلام وعن الأمم الإسلامية كلها ، والدفاع عن الإسلام وأممه ليس مسألة مجردة ، أعني مجرد كلام بل إنه - يقول علال الفاسي - « يستدعي بالطبع قبول المبادئ التي تعطي للفرد حرية العقيدة وحرية الفكر ، وتعطي للأمم الحق في تقرير مصيرها ، واختيار النظم التي تريدها وحرية العقيدة تستوجب حرية التألب من أجلها والتجمع للنضال عنها بالوسائل المشروعة السلمية وتقرير المصير واختيار النظم يستوجب حرية الجماعة في التعبير عن رأيها وإبداء ما تريده من أشكال الحياة ، وكلا الأمرين لم يتم إلا بطريق التنظيم الذي جاء به العصر من جمعيات وأحزاب ونقابات » [الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي ص ٢٠٤-٢٠٦].

ومن الغريب أن بعضاً من أفراد الفريق الثاني - وهو الذي اختلط عليه الأمر ، فظن أن عودة الروح الإسلامية تكمن في التمسك بالأشكال والصور دون الغايات والأهداف ، مصحوبا بالعنف والإرهاب والتخويف والبطش والاقتتال . . حتي مع بعضهم البعض - أعلن الحرب علي الاتجاه الإسلامي المستنير ، ظناً منهم أن محاولة شرح تعاليم الإسلام بما يتناسب مع ظروف العصر ، هو ضياع للإسلام ، وقضاء علي تعاليمه ، فاعتقدوا أن المدافعين عن الإسلام بروح العصر زنادقة ، خارجون علي الدين ، وذلك بسبب :

تأويلهم النصوص ، ومخالفتهم آراء السابقين .

- ورفضهم لبعض ما ورد في تراث الفكر الإسلامي من آراء بحجة آراء واجتهادات أملتها ظروف اجتماعية ، لم يعد لها وجود الآن .

- ولقبولهم أشكالاً ونظماً عصرية لا يعرفها الفكر الإسلامي، كالديمقراطية، وتعدد الأحزاب السياسية ، ونظم وقواعد المؤسسات المالية . . إلخ.

ومما لا شك فيه أن هذه المواجهة أشد وطأة علي الاتجاه المستنير من دسائس القوي العظمي ، ومؤمرات المؤسسات العالمية ضد الإسلام ، لأن المعارضين مسلمون ، يملكون أسلوباً أكثر تأثيراً علي جماهير المسلمين من نظريات وخطط المستنيرين التي لا يفهمها إلا الصفوة من أرباب الفكر وفرسان الأقلام . فأسلوب المعارضين ، بسيط يفهمه دهماء المجتمع ، ومغلف برداء روحاني ، يسيطر علي مشاعر المسلمين ، ويملك أفئدتهم ، حتي وإن كان خاوياً من المضمون الفكري . . بل يتقبلونه ويتعصبون له ، دون إدراك لما يحمله من جوانب سلبية تعيق حركة التقدم ، وتقضي علي حيوية الإسلام وانتشاره ، دون أن يلحظ ذلك الغافلون أو يتبين لهذا الضعف المتشنجون من العامة والدهماء.

وقد تنبه أعداء الإسلام لهذا الجانب ، فكرسوا جزءا كبيرا من جهودهم لمساعدة - بل وخلق - الحركات التقليدية ضد الاتجاهات المستنيرة في المجتمعات

الإسلامية . وأعتقد أن لهم يداً خفية تحرك ، وتخلق المشاكل الفرعية التي تشوش علي جهود الجادين في عرض مبادئ الإسلام نقية ، وبعيدة عن السفاسف المأفونة والتفاهات المريضة ، إذ ليس من قبيل المصادفة أن : اهتمام الشباب في قطر من الأقطار ، منصبا علي البحث عن حل أو حرمة ليس من أصول ، أو فروع التعاليم الإسلامية ، ولن تؤثر معرفته أو الجهل به علي سلامة العقيدة واستقامة السلوك ، ثم نجد نفس هذا الاهتمام بهذا الشئ قد انتشر في كل بلد إسلامي . . أليس هذا مما يلفت الانتباه إلي أن وراء هذه الظاهرة يداً خفية تحرك خيوطها في جميع بقاع العالم الإسلامي[1] حتي ينشغل شباب المسلمين بهذه الأمور تاركين القواعد والتعاليم الإسلامية التي تؤثر في

---

(١) يقول الشيخ الغزالي: تساءلت هل وراء . . . (هذه الظاهرة) أحد يكيد للإسلام؟ فقد ظهر (مروجوها) بغتة في عدة أقطار متباعدة .

وجاءني الجواب علي غير انتظار ، فقد كنت أحاضر في مدينة «المنيا» وعقب المحاضرة رأيت أن أنصرف مسرعا لأني كنت متعبا ، ولكن شاباً ألح علي أن أنتظر لأجيب عن سؤال أثار بعض البلبلة واضطررت للانتظار ، فإذا السؤال المعروض عن حكم «الخل».

وعقدت لساني الدهشة ! حكم ماذا ؟ قالوا : حكم الخل ! قلت : ماذا جري للخل ؟ قالوا : نسأل عن حله أو حرمته ، قلت وأنا ضجر : حلال.

فرد أحد المتقعرين : الدليل ؟ قلت : الأصل الحل ، ومن زعم الحرمة فهو المطالب بالدليل وتركت المكان وأنا أتعجب . . .

وشاء الله أن أسافر إلي «أبو ظبي» وأن أخطب. . الجمعة . . في مسجد حاشد، وعقب الخطبة تلقيت أسئلة . . مكتوبة لأجيب عنها. وإذا سؤال يتصدرها عن حكم «الخل» .

قلت للمصلين : هل هذا السؤال مكتوب في عاصمة أجنبية ، أشرف علي وضعه مع غيره من الأسئلة المحقورة بعض المبشرين والمستشرقين الذين يعملون لحساب الاستعمار الثقافي ويريد شغل العوام بما يصرفهم عن لب الإسلام .

وقصصت عليهم كيف سبق لي هذا السؤال في صعيد مصر ، وإذا كنت أسمعه الآن في غرب أسيا بعد شرق إفريقيا فلابد أنه مع أسئلة أسخف منه سوف تصدر للهند والسند =

دفع عجلة التقدم وترسم معالم مستقبل مشرق وتقود إلي كتابة أحداث ناصعة في سجل التاريخ الإسلامي ؟ .

وما نراه من ملاحقة السلطات لهذه الجماعات ، فليس إلا محاولة لتحجيم عملهم والسيطرة علي تحركاتهم ، حتي لا يتجاوزوا المهمة المطلوبة منهم .. ألا وهي إضعاف التيار المستنير ، وشل فاعليته في المجتمع الإسلامي ، ومنع وصول صورة الإسلام نقية من شوائب الأساطير وصافية من الأفكار والصور التي تعيق حركة التقدم إلي المجتمعات غير الإسلامية ، حتي لا تتأثر بها فتتكون قاعدة إسلامية في هذه المجتمعات تفسد خطط أعداء الإسلام ، وتقضي علي آمالهم في محاصرته والقضاء عليه ، ذلك أن الإنسان في العصر الحاضر - وخاصة في المجتمعات الليبرالية - أصبح حرا في آرائه ، منطقياً - في الغالب الأعم - في تفكيره واقعياً في نظرته إلي المبادئ والنظريات التي تتصل بسلوكه وتؤثر في نظام حياته الأسرية والاجتماعية والمادية ، فإذا وجد صورة إسلامية تلبي طلباته ، وتشبع رغبته الوجدانية والمادية في إطار عقلاني، وبصورة واقعية ، فإنه مما لا شك فيه سوف يميل ، . . . بل يعتنق هذه العقيدة ويدافع عنها ، وهو أمر ترفضه القوي المعادية للإسلام .

ولهذا تساعد - من طرف خفي وبطرق مباشرة وغير مباشرة - الجماعات الإسلامية التي :

- تتنافي الصورة التي تقدمها عن الإسلام مع عقليات ومفاهيم الإنسان المعاصر ،

- وتصطدم مع الواقعية التي أصبحت لغة العصر ، ومفتاح التطور والتقدم

= وغانا والسنغال !! ولست أرمي بالتبعة علي أعداء الإسلام فإن القانون لا يحمي المغفلين وإنما ألفت النظر إلي هذا الهوس الفكري وحملته في كل مكان. لقد أصبح هناك متخصصون في إثارة الخلافات الغريبة وشحن القلوب بالغضب من أجلها فلحساب من يقع هذا ؟ [هموم داعية ص ١٣٢ - ١٣٣].

في المجتمعات الإنسانية ،

- وتعادي المسلمات الضرورية التي تقوم عليها حياة الشعوب العشرين .

* إذ نري تمويلا واضحاً لهذه الجماعات لا يعرف مصدره .

* ونقرأ ونسمع ، ونشاهد أخبارها في وسائل الإعلام المختلفة بل إن المحللين يركزون علي هذه الفئة ، عندما يتناولون الظواهر الاجتماعية والدينية في الأقطار الإسلامية ناسين - أو متناسين في الغالب - الجانب الآخر وهو ما يقدمه التيار المستنير من :

- شرح لمبادئ الإسلام .

- وتوضيح لتعاليمه في ظل المتغيرات الفكرية المعاصرة .

كما يهمله أيضا - أو علي أكثر تقدير : يتناوله في زوايا صغيرة لا تكاد تثير انتباه أحد من القراء - فريق المتخصصين في العلوم الإسلامية في العالم الغربي، فإذا حدث في المجتمع الإسلامي ما يساعد علي تشويه صورة الإسلام عند الغربيين ، اهتزت أسلاك البرق في جميع أنحاء العالم ، ودارت المطابع بأقصي سرعة مبرزة إياه في الصفحات الأولي ، وبصورة ملفتة للنظر ، وظهر المحللون والنقاد علي الشاشة الصغيرة عبر الأقمار الصناعية ، وعقدت الندوات والمحاضرات في الجامعات والمعاهد وفي الملتقيات الاجتماعية والسياسية لإلقاء الضوء علي هذا الحدث « الفظيع » ، وإبرازه في صورة يقشعر منها بدن الإنسان المتحضر ، ويستنكرها الليبراليون والدكتاتوريون علي السواء ، علي الرغم من وقوع آلاف الحوادث من هذا القبيل في المجتمعات غير الإسلامية ، علي اختلاف عقائدها ومذاهبها . . ولكنه الإسلام . . .

والأسلوب الذي يعبر به النصيون والمتطرفون عن الإسلام ، يساعدهم - أي يساعد أعداء الإسلام - في هذا المجال . . بل إنه يقدم لهم المادة التي يحاربون

الإسلام بها ، والأدلة التي يستخدمونها في تشويه صورته أمام جماهير الشعوب، فهم يُتَّخَذون - من حيث لا يدرون - أداة لمحاربة الإسلام في داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها (١) .

أما في الداخل فيلعب التطرف دوراً كبيراً في تخويف المفكرين من الحكم الإسلامي ، إذ يتصورنه علي أنه ديكتاتورية مطلقة ، مدعمة بسياج ديني ، لا يستطيع أحد أن يعارضها ، أو يناقشها ، لأنها تري أنها تتكلم باسم الإسلام ، وتتصرف طبقا للوحي السماوي ، فمن يجرؤ علي معارضتها فجزاؤه الطرد من حضيرة الأديان ، والحكم عليه بالموت حداً ، أو علي الأقل بالموت الأدبي والاجتماعي ، وهو أشد أنواع العقوبات نكالاً وتعذيبا .

فإذا تناول المثقفون وأرباب القلم هذه الصورة بالشرح والبيان وسلطوا عليها الأضواء الساطعة . . فهل يكون هناك مكان للتفكير - عند صانعي القرارات المصيرية في حياة الشعوب - في الاتجاه إلي الحكم الإسلامي . . . فضلا عن تبني الدعوة له والعمل علي طريق التمهيد له ، ليأخذ مكانه في الفكر التشريعي ، خاصة وأن هذا التخويف الداخلي يدعم تقارير خارجية تنذرهم ، وتحذرهم من الاتجاه نحو الإسلام ، كما تلوح لهم بالمساندة ضد المتطرفين ماديا ومعنويا . . فإن لم يستجيبوا فسرعان ما يختفون من الساحة ، وتطوي صفحتهم السياسية ويكونون بذلك عبرة لمن يخلفهم ، وإنذارا لمن يعاصرهم في

(١) إذ تخرج لنا المطابع كل يوم كتبا تحمل عناوين إسلامية وتضم بين طياتها معاول هدم للإسلام ، فعلي سبيل المثال - لا الحصر - نقرأ في صفحات بعض هذه الكتب :
- أن الأرض طبق محمول علي قرن ثور ضخم ، فإذا ما تعب قرن الثور الأيمن نقل الأرض إلي القرن الأيسر فتهتز الأرض عند الثقل وتحدث الزلازل !!
- وأن تاريخ هذه الأرض منذ خلقها الله شيد فيها خمسين ألف ألف مدينة من فضة بيضاء ، وخلق في كل مدينة مائة ألف قصر من الذهب الأحمر ، وملأها بحب الخردل ثم خلق طيراً أعمي ، وجعل رزقه كل سنة حبة واحدة حتي فنيت الحبوب !!
- وأن الأرض ليست كروية !!! .

الأقطار الأخري .

هل يستطيع الاتجاه الإسلامي « المتفتح » - الذي يدرك معطيات العصر ، ويفهم متطلبات الحياة - التأثير بمناهجه الإسلامية الواقعية وأسلوبه الواعي علي الجماهير الإسلامية وسط هذه الغيوم القاتمة ؟ .

هل يتمكن المصلحون من رفع أصواتهم ليسمعهم المتدافعون علي طريق من أداروا ظهورهم للإسلام ويقنعوهم بسماحة الإسلام في مجال العلاقات الدولية ومرونته في التعامل مع الهيئات والمنظمات الدولية وحرصه الشديد علي السلم مع كل الأطراف علي اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم؟ .

هيهات !!! لأن سلوك المتطرفين وتصرفاتهم اللامسئولة ، وحرص القوي العالمية علي إبراز هذه التصرفات والمبالغة فيها ، دفع فريقاً آخر إلي الاشتراك في خنق هذا التيار المستنير حتي لا يعلو صوته ، ولا يرتفع نداءه إلي أكثر من الدائرة الضيقة المحيطة به .

هذا الفريق ، هم أولئك المثقفون الذين رفعوا راية التمرد . فتنكروا للماضي ، ورفضوا أن يكون للتراث مكان في حياتهم ، فاندفاعهم وراء كل جديد حملهم علي تحطيم كل ما يصلهم بتراثهم ويذكرهم بتاريخ أمتهم فهم يلهثون خلف الأفكار المستوردة دون تمييز بين غثها وسمينها ، ومن غير نظرة إلي التفريق بين ما يلائم ظروف الحياة في مجتمعاتهم ، وبين ما يصطدم مع معتقداتهم ويتنافي مع قيمهم ومبادئهم . . بل إنهم لا يدركون التمييز بين ما يضرهم - في الجانب الاقتصادي علي الأقل - وما ينفعهم لأن صورة تخلف مجتمعهم بالمقارنة بالمجتمعات المتقدمة وعدم وضوح المسار الحضاري ، المرتكز علي ماضيهم وواقع حياة مجتمعهم بما أحاطه من غيوم المتطرفين ودسائس المتآمرين . . كل هذا أحاطهم بسياج داكن :

- رأوا من خلاله عجز الفكر الإسلامي عن مسايرة التقدم ، فأنكروا أن

يكون للإسلام دور في هذا الصراع الحضاري.

- وشاهدوا تخبط المتحدثين باسم الإسلام بين القديم والجديد .
- وترددهم في انتقاء الصالح من التراث .
- والصحيح من القيم والمفاهيم .
- لبناء ركيزة قوية يمكن الانطلاق منها إلي آفاق المستقبل.
- فأداروا ظهورهم لهم .
- وصموا آذانهم عن سماع أصواتهم .
- حتي وصل بهم الأمر إلي إنكار أن يكون هناك صوت متفتح ، يتحدث باسم الإسلام لأن صوت المتطرفين شوش علي المعتدلين ، وعنفهم طغي علي مَنْ عداهم من الأصوات المتبولة إسلامياً والمقْنِعة في ساحات الفكر المختلفة سواء كانت محلية أو دولية.

هذا هو واقع مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة .

- اتجاه إسلامي ، واع ، معتدل ، يفهم معطيات العصر . ويدرك متطلبات الظروف الدولية ، بماله من ثقافة متعددة المناهل والمناهج ، وفكر إبداعي مكنه من استخدام قدراته العقلية في وضع التراث في خدمة الانفتاح علي المستقبل وتفسير النصوص.علي نحو يقضي علي السلبية والتواكل ، ويدفع المسلم إلي العمل والإبداع ، والابتكار ، ليلحق بركب الحضارة [1] وتنقية العادات

(١) يري سعيد حجي (١٩١٢ - ١٩٤٢) أن « البون شاسع بين مدنية العصر ، والحياة التي نحياها : فبينما مدنية العصر تمثل النشاط ، نمثل (نحن) الخمول ، وبينما مدنية العصر تتكيف في المعرفة الحقة في جميع الحياة إذا بالجهالة تخيم من جميع نواحينا ، وبينما المدنية العصرية تعلمك ، أن تعيش للمجموع ، إذا نحن لا نرعي إلا مصالحنا الشخصية ويعلن كل واحد منا في كل مناسبة : « بعدي الطوفان » وللخروج من هذه الوضعية المتخلفة لابد من الأخذ بأسباب المدنية وغرس جذورها في المجتمع ،=

والتقاليد من الشوائب والعوائق التي أضعفت الأمة وأوهنتها لتنطلق في طريق التقدم حتي تأخذ مكانها بين الأمم المتحضرة . . . لا . . . بل تسبقها لتكون لها الريادة كما كانت في الماضي . . ريادة تمسك بزمام الركب الحضاري مع الاحتفاظ بعقيدتها والالتزام بقيمها وتقاليدها في صورة صافية خلاقة .

- يعارضه إتجاه تنكر للإسلام ومبادئه ، بحجة أنه لا يساير العصر ، ولا يواكب التقدم ، بل هو يمثل حجر عثرة في سبيل انطلاق الأمة إلي الأمام ، فالتراث قيد يمنع الأمة من السير ويباعد بينها وبين معطيات العصر ، فهي تعيش بسبب التمسك به سجينة الماضي ورهينة أفكار أناس عاشوا في زمن غير زماننا وعصر لا يمت إلي عصرنا بصلة .

ولذلك أعلن هذا الاتجاه أن الإسلام لا يصلح للحياة المعاصرة ، فلا ينبغي الركون إليه في بناء مستقبل الأمة وعليه فيجب أن ينحصر في المساجد وداخل أماكن العبادة فقط ، بحيث لا يتجاوزها إلي مجالات الحكم والسياسة وكذلك لا شأن له في مجال المال والاقتصاد .

ومما يقوي حجة هذا الفريق ، ويدعم أدلته سلوك الفريق الثالث في مجال الصراع بين القديم والحديث وهو :

- الاتجاه الذي يبدو من سلوكه الظاهري أنه يتحدث باسم الإسلام بل هو الوحيد الذي يدافع عنه ضد الفريقين السابقين [1] فهو يدعي أن الفريق الأول

= علما بأن « المدنية تتكون من عنصرين : عنصر إنساني هو ما يبثه العلم في الوسط ، وعنصر شعبي هو ما تكونه مجموع التقاليد المحلية فالعنصر الأول سنقتبسه أين صادفناه بعد أن أضعناه مدة مضت ، والعنصر الثاني لا يقتبس من الغير وإنما يكتشف في الأمة ويعمل علي إحيائه واستثماره بمزجه وتفاعله مع العنصر ، « الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي ص ٢١٢ - ٢١٣ ».

(١) يندرج تحت هذا الاتجاه تنظيمات عدة مثل : « الإخوان المسلمون ، حزب التحرير الإسلامي ، حزب النهضة ، جبهة الإنقاذ الإسلامي ، جماعة التبليغ ، الجهاد =

تآمر علي الإسلام بحجة تحديثه ومسايرته للعصر فهو أي الفريق الأول يتنازل عن مبادئ ومسلمات إسلامية ويؤول نصوصا تأويلا بعيدا عما ورد في كتب التراث، ليقدم إسلاما عصريا ، ولذا يجب التصدي له ، ومحاربته حتي لا تنتشر آراؤه في المجتمع .

كما يعلن أصحاب هذا الاتجاه الثالث الحرب علي الفريق الثاني بأسلوب يستفيد منه المنكرون لدور الإسلام في المجتمع المعاصر في تأييد ادعائهم وبيان صحة وجهة نظرهم .

دعاوي تسئ إلى الإسلام

لو استعرضنا تصرف أصحاب الاتجاه الثالث في ميدان التحدث باسم الإسلام، والدفاع عنه ، لوجدنا أن معظمه يُنَفِّر من الإسلام ويحمل الآخرين المترددين علي الثبات علي موقفهم في مواجهة حجج المستنيرين ، الذين يعرضون الإسلام بمنهج منطقي واقعي ، فعلي سبيل المثال :

١ - الإدعاء بأن الإسلام يحرم الديمقراطية (١):

يوحي بأنه يدعم الديكتاتورية ويحث المسلمين علي الدفاع عنها ورعايتها.

= الإسلامي . . . وغيرها مما لا يسع المقام لتناولها ، ولا يتحمل البحث بيان ما بينها من اختلافات في المنهج والمضمون .

(١) يقول أحد رموز هذه الاتجاه :

« من بين الأسباب التي تجعلنا نرفض المذهب الديمقراطي ، أن الديمقراطية تقوم علي رأي الأغلبية ، فمعني ذلك أن رأي الأغلبية هو المعيار لمعرفة ما هو عادل ومعقول ، وبناء علي هذا المبدأ، نجد أن رؤساء الأحزاب يحاولون كسب أكبر عدد ممكن من الأشخاص = = ولو كان ذلك علي حساب الإيمان والكرامة والدين والشرف من أجل هدف وحيد هو كسب أصواتهم في المعارك الانتخابية ، أما نحن أهل السنة ، فنعتقد بأن الحق لا يظهر إلا في دلائل الشريعة الحاسمة ، ولا يتجلي في عدد الأصوات المشتركة ، ولا في عدد الأصوات الديماجوجية . . . إن شعار « الديمقراطية » الذي ينادي به البعض ليس إلا تهريجا [بورجا ص ١٤٠ - ١٤١].

٢- تحريم تعدد الأحزاب في المجال السياسي :

يصور للناس أن الإسلام لا يسمح بتعدد الآراء في أسلوب الحكم ، واختلاف الأساليب في تنظيم مؤسسات الدولة ، مفضلا عليها توحد الرأي ، حيث يترتب عليه الجمود وانفراد مجموعة بالحكم علي غرار الحزب الواحد في النظم الديكتاتورية .

٣- رفض التعامل مع معطيات العصر الحضارية :

يؤكد رأي المعارضين لدور الإسلام في الدولة المعاصرة في أن الإسلام يدعو للجمود والتخلف ويحارب الإبداع والابتكار ، مفضلا عليه التقليد ، والثبات علي موروث الماضي . . . حتي وإن كان غير صالح للحياة العصرية .

وداعياً إلي التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد . . حتي وإن بدأ خطره في مجال الصراع بين الحضارات، وتأكدت آثاره السلبية في آفاق السباق بين الأمم، سواء كان ذلك علي مستوي الأفراد أو في قاعات المؤسسات التعليمية والثقافية .

٤- محاربة الانفتاح علي الثقافات الأخري بحجة الخوف من الغزو الثقافي :

يرسم صورة غير صحيحة عن موقف الإسلام من المعرفة ، إذ يؤكد لغير المسلمين - ولقطاعات واسعة من المثقفين المسلمين - أن الإسلام لا يُقَيِّم المعارف علي أساس مَوضوعي ولا يتعامل مع الثقافات بمنطق واقع الإنسان ومصالح المجتمعات ، فهو لا يمد جسور الاتصال مع الإنتاج الفكري للمجتمعات الأخري ، بل يدمرها إن كانت قائمة ، وذلك بتحريم كل ثقافة لا تنبع من داخل مجتمعاته ، وتحريم كل من يميل - مجرد ميل عاطفي - إلي الثقافات الأجنبية ، فضلا عن الاتصال بها ، والأخذ منها . . حتي ولو كانت ضرورية في حياة الأمم المعاصرة [١] ولست متجنياً في هذا علي أحد ، فما

---

(١) يري المحللون أن تزاوج الثقافات هو أحد العوامل الرئيسية في نهضة الأمم =

زالت المطابع تخرج لنا عشرات الكتب التي تتحدث عن الغزو الثقافي ، وعن

= والشعوب، بل يكاد يكون العامل الأول في مجال الإبداع الثقافي والتطور الفكري، أدرك كثير من المفكرين العرب أن الاتصال بالثقافات الأخري يلعب دورا كبيرا في تجاوز الأزمات الثقافية التي تصيب الشعوب من جراء الانطواء والتقوقع علي الذات، فقد كتب عبد القادر العمراني تحت عنوان «حاجتنا إلي ثقافة مزدوجة»: «توالت الصرخات منذ عدة سنين وتكاثر تساؤل اليقظين من بني الأمة عن الأسباب العميقة لهذه الأزمة ، أزمة الإنتاج الثقافي التي تجتاح المغرب ، فتلقي في النفوس الحيرة والقلق والتخوف من عواقبها الوخيمة ، ففي الوقت الذي نري فيه المغرب يخطو خطوات واسعة إلي الأمام ، ويسجل تقدما يدعو إلي التفاؤل في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، نري أنه من الناحية الثقافية ، أو بتعبير أدق من ناحية الإنتاج الثقافي قد ظل كما كان عليه منذ أزيد من عشر سنين لم يلاحظ فيه أي تطور في الكم ولا في الكيف » ، ويتساءل : = فما هي الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة الغريبة ؟ ويجيب ملاحظا أن الأمة ستستمر لمدة أطول «ذلك لأن العناصر التي من شأنها أن تنتج إنتاجا يفي بما تتطلبه روح العصر من جهة ، ومقومات القومية المغربية من جهة أخري ، هم أبعد الناس أن يؤدوا رسالتهم الثقافية كما يجب ، سواء منهم الذين أشبعوا بثقافتنا الوطنية التقليدية أو بالثقافة الغربية الخالصة فالأولون قد فشت بضاعتهم العلمية وانعدمت لديهم كثير من الوسائل الثقافية التي من شأنها أن تجعلهم دوما وعلي استمرار في ركب القافلة الإنسانية التي تحث السير وتسرع الخطوات ، أما الآخرون فلهم من ثقافتهم الغربية الخالصة ما يجعلهم غرباء في أمتهم ، ومجتمع هو مجتمعهم » ، ويمضي الكاتب في تحليل حالة كل فريق وإمكاناته ليخلص إلي نتيجة أن الحل الذي من شأنه أن يخفف من حدة هذه الأزمة ، ويقصر من أمدها هو « الاعتراف بأن المثقف المغربي (. . .) في حاجة إلي أن يجمع بين الثقافتين ، ويلقح إحداهما بالأخري (. . .) فإذا نحن أبينا إلا الاستمرار في ذلك الظن الخاطئ الذي يري أن ثقافتنا التقليدية بمفردها كفيلة بأن تهيئ لنا شبابا مثقفين خليقين بحمل هذا الاسم فإن الأزمة لن تزداد إلا تعقداً وخطورة » ، ويختم الكاتب مقالته بعبارة لها دلالة خاصة بالنسبة (لضرورة التزاوج الثقافي) فيقول : « هذا وإن الضرورة الملحة العاجلة لتقضي بمحاولة التقريب بين العنصرين قصد التفاهم والتعاضد والتعاون كخطوة أولى للمصاهرة والازدواج ، ثم النسل والإنتاج » [الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي ص ٢١٤].

الأخطار المهولة التي ستصيب الأمة من جراء معرفة أبنائنا بما يفيد من ثقافة الغير ،

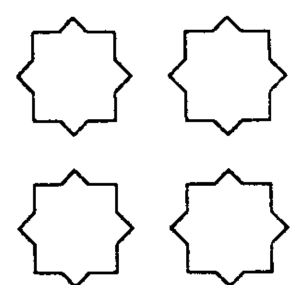
- ضاربين - أي مؤلفي هذه الكتب - عرض الحائط بحتمية الاتصال بالثقافات الأخري إن أردنا مواكبة التطور (١).

- وناسين - أو متناسين - قول رسول الله ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها » ، أي في أي مكان وجدها . . . حتي وإن كانت عند ملحدين ، يحاربون الله ورسوله ،

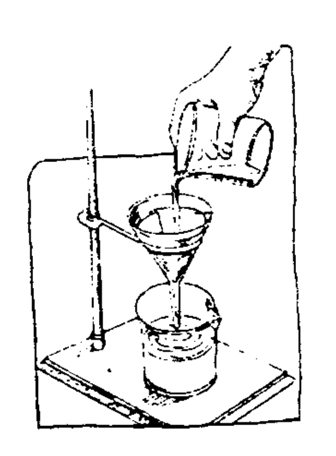
- وغافلين عن أن الاتصال بالثقافات الأجنبية في صدر الإسلام كان من أهم العوامل التي ساعدت علي بناء نهضة المسلمين في عصور الازدهار والتقدم التي لا زلنا نتغني بها ونحلم برجوعها حتي الآن .

---

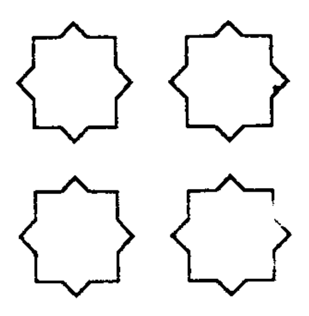
(١) إذ لم يعد هناك الآن مجتمع مغلق علي ذاته « وبناءً عليه » فلا يمكن للمجتمع «الإسلامي» أن يعيش في عزلة عن بقية أنحاء العالم أو يعزل نفسه عن المؤثرات الثقافية الخارجية التي تنقلها كل وسائل الإعلام والاتصال في سهولة ويسر وبكثرة وكثافة هائلة [أحمد مصطفي أبو زيد ص ٣].



الفصل الثاني



مواقف وآراء مريضة



مـواقـف وآراء مريـضـة

وبالإضافة إلي هذه الإساءات التي يتسبب فيها هذا الفريق في مجال الصراع الحضاري بين الإسلام والتيارات المعاصرة يلجأ في دفاعه عن الإسلام إلي مواقف وآراء تسئ إليه ، فهو كمن يستعمل سلاحاً يرتد إلي نحره دون أن يدري ، فيساعد عدوه بذلك علي النيل منه ، ويكفي المرء أن يتمعن في هذه السلوكيات ليتأكد من ذلك :

- الاهتمام الزائد بالأمور الفرعية ، لدرجة الطغيان علي الأساسيات ، بما يعجزنا عن الوصول إلي الأهداف في مجال الحياة المختلفة .

- التركيز علي اجتهادات فردية ، ورفع درجتها إلي مقام النص المنزل الذي يترتب علي إنكاره كفر من أنكره .

- الصراع الحاد الذي يصل أحيانا إلي درجة التقاتل بين الجماعات الدينية ، لمجرد الاختلاف في تفسير النصوص وتأويلها .

- إعلان الحرب سافرة علي مؤسسات السلطة التنفيذية ، ومحاربة كل من تتفق آراؤه معها من المفكرين . . حتي ولو كان هذا الاتفاق مجرداً من الهوي، وبعيدا عن التواطؤ ، ومبرأ من تبادل المنافع ومقايضة المصالح بين الطرفين.

- التمسك بمظاهر وسلوكيات لا تعبر عن روح الاسلام ، بل تشوهها وتمسخها ، فضلا عن أنها توحي بقُطْرية الاسلام ، وتنفي عالميته ، مثل : الادعاء بأن الزي الاسلامي ، هو الثوب الأبيض والنعال ، ورفض كل ما عداه من الأزياء العالمية رفضا يصل في بعض الأحيان إلي التحريم.

- حصر الدراسة والتعليم في مجال العلوم الدينية ، ورفض ما عداها من

علوم ومعارف لدرجة أن بعض الشباب ترك دراسة الطب والهندسة وغيرها من العلوم التجريبية وانصرف إلي دراسة العلوم الدينية بحجة أنها هي وحدها التي يجب علي الشباب المسلم دراستها ، لينال رضاء الله ويدخل جنته.

- إقامة الشباب ليلا ونهاراً بالمساجد ، يأكلون ، ويشربون ، وينامون فيه:

* تاركين زوجاتهم محرومات من حقوقهن الزوجية .

* مهملين أولادهم دون رعاية معنوية ، وقد ينسون - أو يتناسون - إمدادهم بالطعام والكساء ، وتهيئة الظروف لتثقيفهم وتأديبهم .

* مفرطين في حقوق الوطن عليهم في مجال العمل والإنتاج .

* ومعزولين عن الحياة العامة التي فطر الله الإنسان عليها ، لتعمير الأرض، وإخراج الطيبات منها ، ورعايتها حتي تنتظم حياة الفرد والجماعات في نغم متناسق ، ولحن يطرب من يعيشها ، فتفيض السعادة في قلوب الناس ، ويعم الفرح أرجاء المعمورة .

- عدم السماح بأي رأي مخالف - مهما كانت أدلته ، حتي ولو كان مستنداً إلي مرويات صحيحة - لأنهم فطروا علي رفض ما ليس عندهم ، بل محاربته بصورة تؤكد لمن لم يكن متخصصاً في العلوم الإسلامية ، أن الإسلام لا يسمح بحرية الآراء وتعددها في المجتمع .

ومن المؤسف أن بعض المتخصصين في العلوم الإسلامية يعتنقون هذا الاتجاه ويدافعون عنه ، بل يصلون أحيانا إلي درجة التعصب له بصورة تفوق حماس أنصاف العلماء الذين ركبوا هذه الموجة ، طمعا في جاه أو مال ، وتتعدي حدود نشاط من انضموا إلي هذا التيار من المفكرين ـ ذوي الماضي المعادي للإسلام والمناوئ له ـ لتنفيذ مخطط مرسوم لهم من قوي عظمي ، أو لتبديل جلودهم بعد ما ساء وضعهم بتغير الظروف الدولية واختلاط الأوراق الفكرية في المجتمع .

ولا يخفف من وضع هذه الصورة القاتمة في النفوس ما هو معروف ومسلم به من أن هذا هو الوضع الطبيعي للمجتمعات الإنسانية :

صراع دائم بين القديم والحديث ، يمثلهما تياران متقابلان ، مع وجود تيارات أخري متداخلة بينهما بدرجات متفاوتة .

لأن الصراع في المجتمعات الإسلامية تجاوز حد هذه الصورة الضرورية من النقاش والحوار ، الذي هو وقود لازم لدفع مسيرة المجتمع إلي التقدم والازدهار ، فأصبح سلاحاً مدمراً ، سيطر عليه الجاهلون المتشنجون ، وأنصاف العلماء ، الغافلون ، مع توجيه بعض العلماء المستفيدين ، مما جعل الأمر يخرج عن نطاق الحوار ، إلي المنابذة بالألفاظ الجارحة أقلها الزندقة والتحلل ، وأكثرها : الكفر والإلحاد ، وبينهما اتهامات كثيرة تتعلق بالعرض والأخلاق ، فتنال الأهل والأقارب والأصحاب أيضا .

وليس مثن النادر أن يصل هذا الانحراف عن الأسلوب البناء في اختلاف الرأي إلي الاغتيال الأدبي ، أو الاختناق المادي . . حتي التصفية الجسدية التي تسكت الصوت المعارض ، وترعب الآخرين فتتحشرج أصواتهم ، أو تسكت إلي حين .

ماذا نفعل إزاء هذا الوضع ؟ .

هل نكمم أفواهنا حتي نتجنب الوقوع في مآزق مالية ، ونسلم من التجريح والإهانة ؟

هل نتواري حتي لا تصيبنا سهام أعداء حرية الفكر ، ونبال المحاربين للإبداع الإنساني ؟ لو حدث هذا لكان تحريراً لشهادة وفاة المجتمع ، وتشييعاً لجنازة الوجود الإنساني ، ودفناً لبراعم التقدم والحضارة اليانعة .

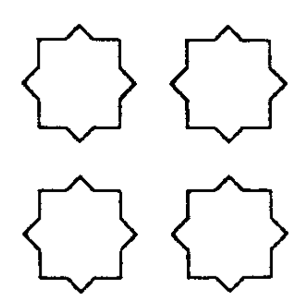
ولقد كدت أن أقول بأن هذا حدث في المجتمعات الإسلامية لولا ومضات هنا وهناك ، أشعلها التيار الإسلامي المستنير ، فهي وإن كان ضوءها خافتاً ، تتلاعب به رياح عاتية من الداخل والخارج ، إلا أنها تعطي أملاً في إمكانية عودة الروح الإسلامية الصحيحة ، التي تمثل الاعتدال ، وتحارب التشدد والتنطع ، فتعبر عن سماحة الإسلام في مجال حرية الفكر ، وتنبذ التعصب والجمود ، بل تحاربه بالكشف عن النصوص الإسلامية في الكتاب والسنة ، التي توصي المسلمين بالرفق مع المخالفين ، وتدعوهم إلي الانطلاق في آفاق الفكر ، بعيداً عن :

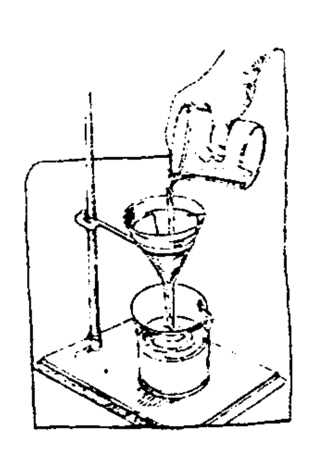
- سجن التقليد .

- ترديد آراء السابقين دون فهم وتمحيص .

- تغييب العقول ، بحجة الالتزام بما قاله الأولون والسير علي خطى سابقين ، لأن آراءهم اجتهادات إنسانية ، مربوطة بعصر معين وثقافات محددة.

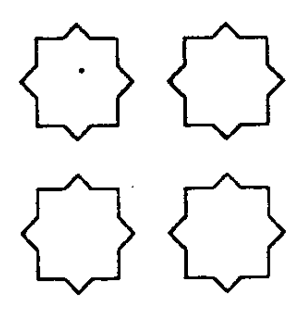
* * *

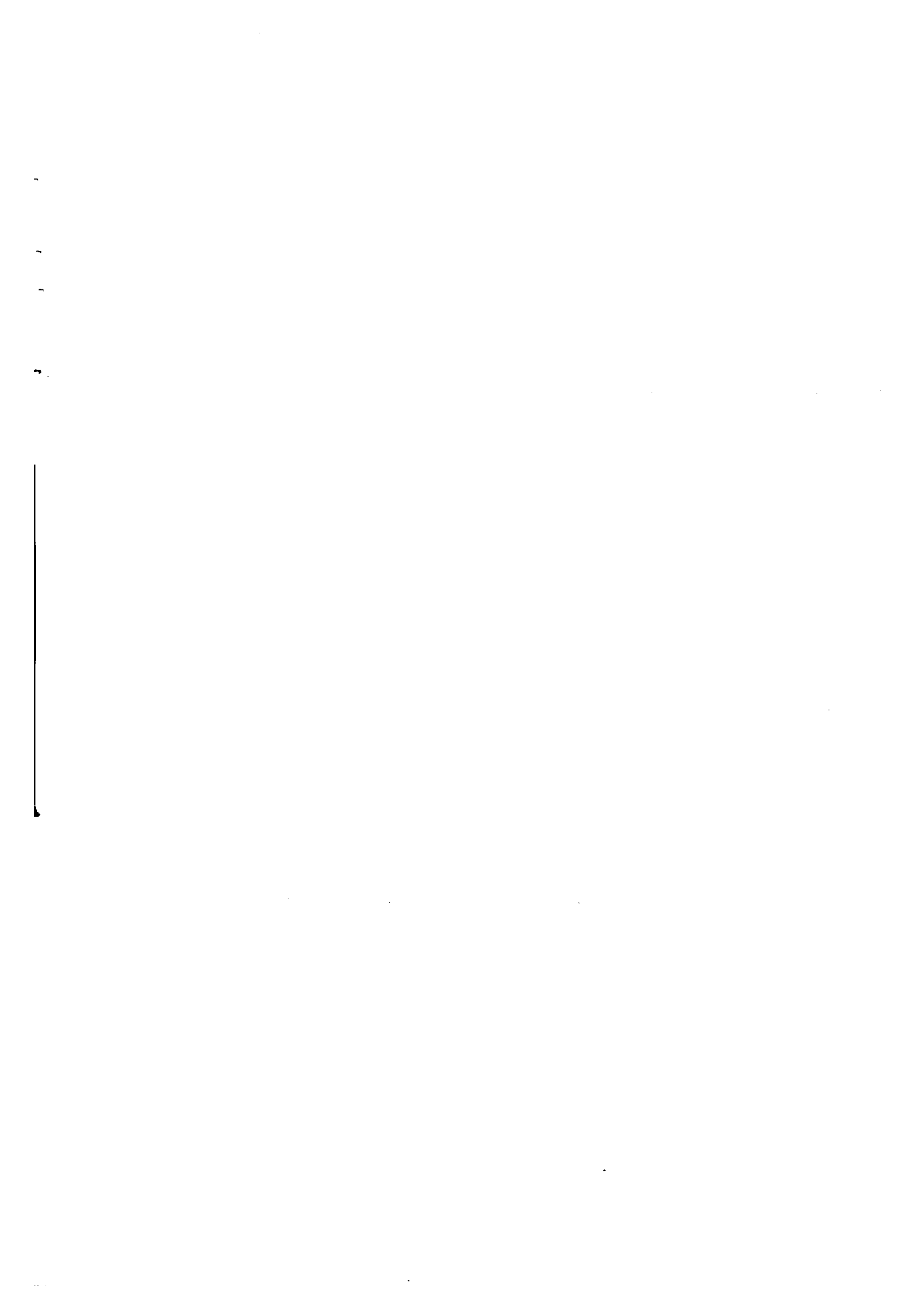




الفصل الثالث

سبيل الخلاص





سبيل الخلاص

فإذا أردنا أن نحرر المجتمع من هذا الصراع المميت ، فليس أمامنا إلا طريق واحد ، ألا وهو : توضيح الهدف وتحديده ، بحيث يدركه أكبر نسبة ممكنة من المسلمين ، حتي نغلق الطريق علي من يندسون في صفوف المجتمع ، لجذب الجماهير هنا وهناك .

ولا يكون ذلك إلا بمحو الأمية الثقافية ، حتي تحرر العقول من سيطرة الخرافات والأساطير التي تسللت إلي الفكر الإسلامي عبر القرون ، ونرتفع بمستوي التفكير إلي درجة تمكن المسلم من التمييز بين ما هو مقطوع من النصوص الإسلامية ، وبين ما هو مرجوح منها ، علي اختلاف في قربها وبعدها عن السلامة في المتن والرواية ، ونوضح له الفرق بين النص الصحيح ، وبين تفسير الإنسان له في الالتزام به ، ومدي إمكانية مخالفته والخروج منه .

ولا يتحقق ذلك إلا إذا تضافرت جهود المخلصين لإرساء القواعد التالية :

١ - حق التعبير :

• الاعتراف بحق كل فرد في التعبير عن أفكاره مهما كانت . . . حتي ولو خالفت رأي جمهور العلماء ، إذ ما دام الرأي بعيدا عن إنكار نص من نصوص القرآن الكريم ، فلا يجوز مصادرته أو ملاحقته إلا بالحجة والمنطق ، أي بسلاحه الذي يستعمله ، وبذلك تختفي ظاهرة الرمي بالزندقة ، والاتهام بالكفر ، لأن هذه الاتهامات لا تعبر إلا عن عجز من يستخدمونها ، وقصور فكرهم عن مواجهة الحجة بمثلها ، فضلا عن أنها سبب رئيسي في ضعف الأمة وجمودها ، الذي يؤدي إلي انهيارها وتلاشيها ، فهي تقتل الإبداع عند الأفراد لأنهم يخافون من سم هذا السلاح القاتل ، والخائف لا يحسن شيئا بل تموت بذور الابتكار عنده ، وتنطفئ ومضات الإبداع لديه ، تحت مطارق التخويف

والتحذير .

وليس بخاف علي من عنده إلمام بأسباب قيام الحضارات في المجتمعات الإنسانية ، أن حرية التفكير من أهم الأسباب - إن لم تكن أهمها - في بناء الحضارات وازدهارها ، إذ يحدثنا التاريخ أن التلازم بين حرية الفكر وازدهار الحضارات تلازم عضوي ، فغالبا ما لا يوجد أحدهما بدون الآخر .

فحرية التفكير هي الدم المتجدد ،الذي يمد الأمة بمقومات الحياة ، لتساعدها علي التخلص من وهن شيخوخة الفكر ، ويحميها من الترهل الذي يصيبها من جراء الجمود والتقليد ، إذ هي - أي حرية الفكر - حصن للأمة ، ووقاية لها من « فيروس » الإرهاب الفكري ، وحماية للمبدعين فيها من بطش المتسلطين، الذي أعماهم الجهل ، فظنوا أن في الاستبداد الفكري محافظة علي الوحدة ، في حين أنه دفاع عن الجمود المدمر للإبداع ، وترويج للتقليد الفتاك لبراعم الإبتكار وتشجيع للسلبية المهلكة للقوي الخلاقة عند أفراد الأمة ، وإطفاء لومضات الأمل في قلوب المصلحين وإخراس لكل لسان يحاول كشف العورات، وقصف لكل قلم يبصر الأمة بالمنهج الصحيح الذي يخلصها من القيود التي تعوقها عن السير في طريق التقدم ، ويدعوها إلي اتباع الأسلوب الأمثل الذي يرفع عنها إصر التخلف وأغلاله ، ومن هنا كان لابد من العمل علي تأمين حرية الفكر ، وحماية المفكرين والمبدعين حتي تنطلق الأمة علي طريق التقدم والازدهار .

ومما لا شك فيه أن مبدأ حرية التعبير عن الآراء هو مظلة تستطيع كل التيارات الفكرية الاستظلال بها ، وفي الوقت نفسه لا يوجد مبرر للخوف من هذه الحرية علي عقيدة الأمة ومبادئها ، إلا إذا كان القائمون علي حماية العقيدة ، والمتخصصون في شرحها وبيانها للناس ضعفاء فكريا ، لا يستطيعون مواجهة الحجة بمثلها ، ولا يقدرون علي مناقشة ما يعترض سبيلها من أفكار هدامة ، فهم - لضعفهم الفكري ، وميلهم إلي الكسل والانزواء - يؤثرون

التخويف بسيف السلطان علي قرع الحجة بالحجة ، ويلجأون إلي الاتهامات والتشكيك في عقيدة من يخالفهم في الرأي ، بدل أن يفندوا أدلته ، ويكشفوا عن خطأ حجته ، وتلك آفة كبري أصيب بها معظم المتحدثين باسم الإسلام ، فأصبح سلوكهم عدوانيا ، وصارت علاقتهم بأرباب الفكر مقطوعة ، لأنهم يتحدثون بلغة لا يفهمها أهل العصر ، فضلا عن مفكريهم ، ويحاولون إقناع السلطان بإقرار مبدأ يجرم كل من تسول له نفسه أن يعبر عن آرائه بحرية ، أو يفصح عن الطاقات الوجدانية عنده بتلقائية ، ناسين أن هذا المبدأ سلاح ذو حدين ، إذ قد يستعمله السلطان ضدهم ، فيحرمون من توصيل آرائهم للناس عندما يريد من بيده القرار منعهم من ذلك ، وعندئذ لن يجدوا حجة يواجهونه بها ، لأنهم أقروا مبدأ جواز الرقابة علي الفكر .

فالأولي لهم أن ينضموا إلي دعاة الحرية الفكرية ، ليتحصنوا بها في كل وقت وحين في الدفاع عن الإسلام ، وينسوا أن في حرية الفكر خطر علي الإسلام ومبادئه ، لأن مجرد التفكير في هذا الأمر إهانة للإسلام ، لأنهم ينسبون بذلك الضعف له ، ينسبون للإسلام ضعفا لا يقوي معه علي :

- مواجهة الأفكار المخالفة له .
- ومقارعة المبادىء الهدامة لمبادئه وتعاليمه .

وليس لهذا التصور وجود إلا في أذهانهم ، لأن الإسلام قادر علي مواجهة أي تيار فكري ، مهما كانت قوته ، وعلي أي وضع كان جبروت أصحابه ، ما دام المسلمون قادرين علي شرحه وبيانه للناس بالأسلوب المناسب للعصر ، فقد قاوم الإسلام كثيرا من المبادئ والعقائد التي واجهته علي مر التاريخ الإسلامي فقهرها ، بل إنه لم يخش بيان هذه العقائد الفاسدة للمسلمين ، بدليل أنه ذكر كثيرا منها في القرآن الكريم ، إذ تحدث فيه عن أفكار هدامة ، وسلوكيات منحرفة ، وألقي الضوء علي مذاهب اجتماعية وفلسفية ونفسية يخالفها في الشكل والمضمون ، كما دخل المسلمون في معارك فكرية مع المخالفين في

العقيدة ، فبينوها للناس ، وأقاموا الدليل علي ضعفها وفسادها ، ولم يخافوا في بيانها للمسلمين من غزو ثقافي ، أو تأثير فكري علي المجتمع ، لأنهم كانوا قادرين علي التغلب علي أي تأثير سلبي لها .

فلماذا لا نسير علي دربهم ، بدل أن نتحدث عن غزو ثقافي بالتحذير والتخويف في محاولة للهروب من المواجهة والتفنيد ؟.

إن إسلوب المواجهة ينقي الأجواء الفكرية من أدران الفكر المميتة ، ويصفي المسيرة الفكرية من شوائب الأفكار الدخيلة ، أما التخويف والتعتيم فلا يمنع من تسرب كل ما نخشاه إلي المجتمع دون أن نراه فيسري في جنبات الأمة ، ويفتك بها دون أن يلقي مواجهة أو يصادف ما يكشف عن عوراته.

ولا ينبغي أن تقتصر المواجهة - أو الاتصال بالثقافات الأجنبية - علي ما أنتجه الجزء الغربي من الكرة الأرضية أو ما يسمي بالعالم الغربي بل ينبغي علينا أن نتصل ونواجه جميع الثقافات فهناك ثقافات الشرق الأقصي القديم والحديث بكل آدابها وفنونها وفلسفتها البالغة ونظراتها الثاقبة العميقة إلي الحياة التي سجلتها مجموعة كبيرة جداً من الكتابات التي ترجم معظمها إلي اللغة الإنجليزية .

٢- عدم تقديس فكر السابقين :

يجب الاتفاق علي أن هناك حدا فاصلا بين الإسلام وفكر المسلمين ، أي التفريق بين نصوص الوحي كالقرآن الكريم ، وبين مفهوم المسلمين له علي امتداد العصور ، كما ينبغي أن لا يوضع الحديث بجملته في مقام القرآن الكريم في حجية الاستدلال ، وبالتالي في وجوب الالتزام به وعدم مخالفته ، لأن مراتب الحديث متعددة كما يقول علماؤه . . كما تختلف حجية الحديث باختلاف علاقته بالموضوع ، فما يقبل في مجال العبادات ، قد لا يصلح الاستدلال بنظيره في المرتبة . . في مسائل العقيدة ، وما يسلم به علي علاقته

في مجال الأخلاق ، قد تحول ظروف العصر ومتطلبات الحياة دون تطبيقه ، بل تدعو إلي إهماله لأدني علة فيه ، وقبل هذا كله لا ينبغي أن نطلب من أحد الالتزام بحديث يناقض ما جاء في القرآن الكريم بحجة النسخ أو التأويل ، ولا نوجه اللوم إلي أحد ، إذا رفض حديثا يتعارض مع روح الإسلام ومبادئه ، أو ينكر ما توصل إليه العقل في مختلف نواحي الحياة ، ما دام توجه العقل لا يترتب عليه إنكار نص من نصوص القرآن الكريم بلفظه ، لا بمفهوم المفكرين الأوائل له ، لأن التسليم بما قاله العلماء ليس من أركان الإيمان كما أنه ليس من الفرائض التي فرضها الله علي المسلم ، وإلا رفعنا أقوال العلماء إلي مرتبة النصوص المقدسة ، كما فعل ذلك علماء اليهود والنصاري ، حيث فرضوا أراءهم علي أتباعهم وألزموهم باتباعها كالنصوص المنزلة من عند الله سواء بسواء ، فحقت لعنة الله عليهم ، يقول تعالي :

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ (١).

فنص القرآن الكريم لا خلاف عليه ، فهو قطعي النص ، أما ما ورد في تراثنا من التفسير والشرح والبيان فليس قطعيا ، بل هو ظني ، لأنه رأي بشري، يجوز عليه الخطأ أو وقوعه تحت تأثير الثقافات التي عاشها صاحب الرأي ، كما أنه مرتبط بمدى ثقافة المفسر واتجاهه الفكري ، وتأثيره بالظروف المحيطة به ، ومسلمات عصره التي تكون الثقافة ، وتوجه الفكر ، وتسهم إسهاما كبيراً في تشكيل التيارات الفكرية ، وتوجهها ، وبالتالي فهو ليس بعيدا عن الخضوع - بطريق مباشر أو غير مباشر - لتوجهات السلطة ، ورغبات المسيطرين علي الرأي العام .

وبناء عليه يصبح التراث الفكري للمسلمين مصدرا للانتقاء والاختيار أي

---

(١) البقرة : ٧٨.

أننا ننتقي منه ما يصلح لعصرنا ، ونختار منه ما يوائم ظروفنا [١]، وما عدا ذلك فيجب إهماله حتي لا يكون عاملا من عوامل الجمود والتحجر ، وسبباً من أسباب إجهاض الإبداعات الإنسانية ، وخنقا لروح الابتكار عند المفكرين ، إذ إن مبدأ تقييد المسار الفكري في المجتمع بما جاء في التراث دون تمييز بين صحيحه وسقيمه لا مكان له في مسيرة التقدم ، فهو مناف لطبيعة الازدهار في جميع مناحي الحياة ، ويتعارض كلية مع توجهات التطور في أروقة الفكر ومختبرات التصور الإنساني في مجالات الكون المختلفة ، وفي أعماق الإنسان المجهولة .

فالحضارات الإنسانية كلها قامت علي أساس حرية الفكر ، وعدم التقيد الكلي بما ورثه المجتمع عن السلف ، وإلا ما كان هناك تطور علي الإطلاق [٢] حتي الحضارة الإسلامية لم تشذ عن هذا المبدأ العام في قيام الحضارات وازدهارها في المجتمعات الإنسانية فمن يدرس التاريخ الإسلامي ، يلاحظ أن عصر النهضة في المجتمع الإسلامي قام علي المرتكزات المعروفة ، والمسلم بها في هذا المجال ، إذ كان المبدعون يتمتعون بحرية الرأي وإمكانية الابتكار ، فلم يتقيدوا بكل ما قاله السابقون ، ولم يلتفتوا إلي أصوات المتزمتين من الفقهاء ورواة الحديث ، بل انطلقوا في كل ميدان ، يبحثون وينقبون ، لا يحدهم شئ سوى نصوص القرآن الكريم ، وما ثبت صحته من الأحاديث النبوية ، غير عابئين بأقوال السابقين من المسلمين إلا إذا كانت تسهم في دفع عجلة التقدم ، أما الأفكار المعوقة فقد ضربوا بها عرض الحائط ، ولهذا بنوا صرحا

---

(١) وذلك أمر ضروري إذ « لا سبيل إلي التجديد إلا من داخل التراث نفسه ، وبوسائله الخاصة وإمكانياته الذاتية . . . » الجابري ص ٥٦٨ .

(٢) إن الذين يجزمون بوجوب موافقة الأولين في كل قليل وكثير ، ويحرمون مفارقتهم في النقير والقنطير يعلمون أن أولئك كانوا في بعض المواضع لمتقدميهم مخالفين ، وعلي كلامهم معترضين « الرازي ص ٣ - ٥ » .

شامخا لا زلنا نتغني به اليوم ، دون أن يكون لنا كوميض من نور يقودنا إلي هذا الطريق الذي سلكوه لأننا نسينا - بل أهملنا - منهجهم في الأخذ بأسباب الرقي والتقدم ، وتركنا أنفسنا أسري أقوال بشرية ، قالها أصحابها في ظروف تخالف ظروفنا ، والتزموا بها في حل مشاكل ليست هي مشاكلنا .

ولن نهتدي إلي الطريق الصحيح إلا إذا فرقنا بين الإسلام - أي القرآن الكريم والحديث الصحيح - وبين فكر المسلمين ، فتمسكنا بالأول ، وأخذنا من الثاني ما يصلح لنا ، تاركين ما يعوق مسيرتنا ، ويعجزنا عن اللحاق بركب الرقي والازدهار في عالم انطلق فيه غيرنا بسرعة الصاروخ ، بينما نحن لا زلنا نحبو حبو الأطفال .

٣- عدم تغييب العقل :

يجب الاعتراف بدور العقل في شرح وتأويل النصوص الدينية بما يتناسب مع معطيات العصر حتي لا تطغي الموروثات الشعبية علي النصوص ، فتوجهها إلي مساندة الخرافات في السلوك الاجتماعي ، وتمكين المفاهيم اللامعقولة في فكر المؤمنين ، فتغيب عقولهم في بحور من الأوهام ، لا يملكون فيها إلا الجري وراء تصورات خيالية ، والتمسك بآمال هلامية ، ليس بينها وبين الواقع أدني صلة .

إن فعالية العقل في الحياة الإنسانية أمر لا بد منه في جميع مجالات الحياة ، حتي في مجال التشريع الديني ، إذ يترتب علي إنكارها - أو إهمالها - هدم الدين من ألفه إلي يائه ، لأن خطاب الله موجه إلي العقلاء وحدهم فهم - باستعمالهم العقل - الذين يفهمون الخطاب ، ويدركون مغزاه ، ويتجاوبون معه إن تسليما أو إنكارا ، كما يحتكر العقل مهمة تفسير ، وشرح ، وتأويل النصوص الدينية ، فلولاه لصارت تلك النصوص قوالب محصورة في دائرة ضيقة ، لا تلبي احتياجات الإنسان . . . حتي في الجانب الروحي ، فإنه يستمد غذاءه من فيض العقل وتصوراته لمفهوم الدين.

فالعقل هو المحور الذي يتلقي خطاب الله ، وهو مركز الإشعاع الذي ينبعث منه نور هذا الخطاب بلآلئه ، فيضئ للمجتمع طريقه لحياة أكثر أمنا واستقرارا، وأشد إشراقا في آفاق المستقبل بما يهيئه للأفراد من سبل في مجال التقدم الفكري ، والازدهار المادي. ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان العقل :

- واعيا لأهداف الدين بالنسبة للفرد والمجتمع .
- مدركا لدور النشاط الإنساني في رسم وتشكيل معالم الحياة الإنسانية .
- قادرا علي حفظ التوازن بين متطلبات الحياة الروحية والمادية :
- فلا تغيبه الأساطير الدينية في اللامعقول ، ولا تقيده مقولات المشعوذين، وتصورات العامة لمبادئ الدين وأحكامه في مجال الإبداع والإبتكار.

كما لا تخضعه تشنجات المتشددين للقوالب الجامدة التي لا تسمح بالخروج عما قاله الأولون ، ما دام ارتباط آرائهم بأحداث وظروف الحياة في العصور الماضية واضحا جليا ، وخصوصيتها لا تخفي علي الباحثين والمحللين.

إن الاعتراف بدور العقل في مجال الدين يقضي علي السلبيات التي تعيق حركة المجتمع ، حيث تختفي المقولات المغيبة للعقل ، وتتواري الشعارات المخدرة له ، تلك الشعارات التي يرفعها أناس وسيلة للكسب المادي ، أو أسلوبا للوصول إلي مركز أدبي ، أو لاحتلال مكان بين قادة الفكر في المجتمع.

ومن العجيب أن أصحاب هذه الشعارات يحرصون علي عدم تحقيقها فهم يهتمون بالحديث عن المبادئ والمثل أكثر مما يهتمون بتحقيق هذه المبادئ التي ينادون بها ، بل أكثر مما يريدونها أو يحترمونها ، أو يفهمونها ، وقد يزعجهم أن يتحقق ما ينادون به ، إذ لو تحقق لقتلهم ، فهم موجودن ، لأن مثلهم غير موجودة . . . فأول من يقتله المبدأ المطبق صاحبه ، لو كان ممكنا أن يطبق أي مبدأ . . . إن كثيراً من أصحاب الشعارات في العصر الحديث يرفعونها علي

افتراض أنها سوف تظل أمنية وحديثا فقط ، ولو لاح في الأفق ما يجعلها واقعا لحاربوه ، وكثيرا من الذين تتردد أسماؤهم في الساحة الفكرية اليوم يلعبون هذه اللعبة ، يرفعون من الشعارات ما يستشعرون أنهم يفيدون منه ، ولذا تراهم يغيرون من شعاراتهم ، ويبدلون مواقفهم حسب اتجاه الريح . فإذا ما جاء الدور لرفع الشعار الإسلامي أهملوا العقل ، واستغرقوا في الروحانيات السلبية ، أملاً في كسب أصوات العامة ، بل وكثير من المفكرين المسلمين ، فلو استخدمنا العقل مع هؤلاء لظهرت حقيقتهم ووضحت أهدافهم[1].

كذلك يساعدنا استعمال العقل علي فهم ما يتردد عبي ألسنة المتشددين من شعارات براقة ، ومصطلحات لا يتنافي مضمونها مع الفهم السليم ، والنظرة الثاقبة ، مثل :

- الحاكمية لله .
- ولا ديمقراطية غربية بل شوري إسلامية .
- وحدة لا تفرقها الأحزاب .

الحاكمية لله والديمقراطية

لو أمعنا النظر في المقولة الأولي :

« الحاكمية لله ، أو بتعبير آخر لا حكم إلا لله »

لوجدنا أن مفهومها الصحيح - لا ما يفهمه المرددون لهذا اللفظ كشعار لهم - هو : أن مرجعنا الأول في سن القوانين المنظمة للمؤسسات والهيئات ، والموجهة لمسيرة الحياة الإنسانية هو : النصوص المقدسة المتمثلة في القرآن الكريم ، وما يثبت صحته من السنة النبوية [2].

---

(١) قارن : عبد الله القصبجي : العالم ليس عقلا ص ٣٧٩. وما بعدها.

(٢) يفسر المودودي - اعتمادا علي ما ورد في القرآن الكريم - معني الحاكمية الإلهية فيقول : « إن الحاكم الحقيقي للإنسان هو نفسه حاكم الكون ، وحق الحاكمية في =

ثم إن المرجع يمثل دستور الأمة الذي يحتاج إلي تفصيل وشرح ، وأحيانا تحتم الظروف الدولية ، والمعطيات العصرية تأويله - بما لا يخرجه عن قواعد بنائه اللغوي ولا يبعده عن روح التشريع الإسلامي - تأويلا يسهل علي الفرد حياته ، ويمكن الأمة من الانطلاق في عالم المتقدمين والمتسابقين في مجال الحضارة والازدهار.

ولا يقوم بهذا إلا الفكر الإنساني ، إذ ليس هناك وحي يمكن أن ننتظره ليفصل لنا المجمل ، ويشرح لنا ما يتضمنه النص من فروع وتفصيلات ، وهنا تختلف العقول في الفهم والإدراك ، وتتفاوت في تضييق دائرة المباح واتساعها، وعلي صاحب القرار أن يختار ما يناسب العصر بالطريقة التي يرى فيها أولو الألباب صلاح الفرد ، وسلامة المجتمع ، لا يقيدهم في ذلك قداسة، لأن الآراء كلها اجتهادات إنسانية لا قداسة لها ، فكل مجتهد معرض للصواب والخطأ.

ولا يحول بينهم - أي أصحاب القرار ، أو أولو الفكر في الأمة - وبين تبدل الآراء حائل عندما تتغير الظروف ، لأن ما طبقوه بالأمس . وما يريدون استبداله به اليوم - كلاهما - من إنتاج الفكر الإنساني حول النص المقدس ، فليس ما يفهمونه من النص وحياً ، يجب الالتزام به في كل الظروف والأحوال ، كما أنه ليس كاملاً يلبي احتياجات كل العصور والأزمان . بل هو

= الأمور البشرية له وحده ، وليس لأية قوة سواه - بشرية أم غير بشرية - أن تحكم بذاتها أو تقضي بنفسها .. وبالطبع هناك فرق وحيد هو أن حاكمية الله في نظام الكون قائمة بقوته تعالي التي لا تحتاج إلي اعتراف من أحد حتي الإنسان نفسه ـ في الجزء اللا إرادي من حياته - يطيع حكم الله كما يطيعه الكون كله من الذرة إلي النظام الفلكي ومجموعاته. أما الجزء الإرادي من حياة الإنسان فالله لا ينفذ فيه حكمه بالقوة والجبر إنما يدعو الناس - عن طريق الكتب الموحاة من عنده والتي آخرها القرآن الكريم -للتسليم بحاكميته وطاعته بإرادتهم ... » ص ١٣.

ناقص نقصان الإنسان في الثقافة والمعرفة ، ومرتبط بأحوال العصر وثقافته ، وملابساته ارتباط صاحبه بهما .

وإذا أمعنا النظر فيما تراه بعض التيارات الفكرية في المجتمع الإسلامي من:

« إنكار لصورة الديمقراطية الغربية »

باعتبارها :

فكرا أجنبيا [1]:

أو لكونها صورة إنسانية للحكم ، تتعارض - حسب فهمهم - مع تطبيق شريعة الله في المجتمع .

لأدركنا أن سبب هذا التصور لا يتعدي أمرين :

الأول : مزايدة أصحابه في ساحة الفكر الإسلامي للفت الأنظار إليهم وجذب الرأي العام إلي جانبهم للوصول إلي مكاسب مادية أو معنوية.

وما أكثرها في دهاليز اللعب علي الأوتار الروحية التي خلت من المضمون

---

(١) ليست الإرادة الإنسانية هي المصدر الوحيد للقيم والمبادئ في العالم الليبرالي ، يقول فرانسوا بورجا :

« تفرض « المواثيق الدولية » علي الأعضاء المؤسسين مبادئ مشهورة بأنها أعلي من أي إرادة أغلبية برلمانية ، وبالفعل تدل « مبادئ القانون العامة » وهذا « القانون الطبيعي » أو ذاك علي أن إرادة الإنسان كانت دائما ، حتي عندما كانت تعبر عن رأي الأغلبية - خاضعة لمجموعة من الأطر المرجعية العالمية دون أن تكون مؤهلة لوضع هذه الأطر موضع التساؤل . وتدل هذه « المبادئ » و« القوانين » كذلك علي أنه لكي يتم الحد من تجاوزات الأغلبية - أيا كانت شرعية انتخابها - ينبغي تقبل وجود مبادئ متأصلة تستمد - بحكم الأمور - من مصدر آخر غير الإرادة الإنسانية ، وبناء علي ذلك يتم تقبل فكرة أن الإرادة الإنسانية ليست المصدر الوحيد لصياغة المعايير ووضعها.

العقلي ، وتجردت من غايات الشريعة ومقاصدها في مجال إصلاح الفرد والمجتمع علي أسس واقعية ، تتناغم مع معطيات العصر ، وتتواكب في ركب الحضارة الإنسانية .

الثاني : عدم إدراك أصحاب هذا التيار لمفهوم الشوري في الإسلام ، فهم لم يتصوروا أن الشوري ليست نظاما له شكل محدد ، ويطبق بأسلوب واحد في كل عصر وبيئة لأنه لو كان قالبا محدد المعالم لاصطدم التطبيق مع أشكال الحياة المتعددة في مختلف الأقطار والأمصار ، وتعارض مع معطيات العصور المتباينة عبر التاريخ الإنساني بقفزاته في عالم الاكتشافات الطبيعية ، وتموجاته فوق سلم الحضارة والتقدم.

ومن يقرأ التاريخ الإسلامي جيدا يدرك أن المسلمين فهموا الشوري فهماً صحيحاً فهم لم يحصروها في شكل معين ، لأن الشكل ليس مقصودا ، بل الهدف هو إتاحة حرية الرأي لكل مسلم في اختيار من يتولي الأمر في الدولة، بصرف النظر عن أسلوب وطريقة تحقيق هذا الهدف ، فطريقة اختيار خليفة المسلمين الأول ، وهو أبو بكر رضي الله عنه ، تختلف في شكلها وصورتها عن الأسلوب الذي أجري لأخذ رأي المسلمين في الموافقة علي اختيار عمر خليفة له ، كما أن انتخاب الخليفة الثالث وهو عثمان بن عفان ، كان بصورة مغايرة لما جري في اختيار سلفيه ، مما يؤكد علي أن الإسلام لم يقصد من الأمر بالشوري اتباع شكل معين من أشكال الاختيار ، ولم يهدف إلي تجميد عملية إبداء الرأي في قضايا الأمة في صورة معينة لا يجوز للأمة أن تغيرها ، بل يفهم من ممارسة المسلمين الأول في تطبيق الشوري أن القصد والغرض والهدف هو :

" عدم احتكار فرد أو مجموعة معينة اتخاذ القرارات المصيرية "

حتي لا تكون هناك ديكتاتورية فردية ، أو تسلط عرقي ، أو تحكم طائفي في الشئون التي تتعلق بحياة المسلمين جميعهم ، أما الشكل والصورة ، فقد ترك الإسلام تكييفها لكل مجتمع ، طبقا لمعطيات عصره ، ومتطلبات حياته.

فإذا ارتفعت أصوات تحدد تطبيق مبدأ الشوري بشكل معين لا يجوز تجاوزه، فيجب علينا أن نصحح لهم هذا المفهوم ، حتي لا يستفحل هذا الخطأ بين جماهير المسلمين ، ويشيع بين أصحاب الفكر السياسي في المجتمع الدولي، فتتكون لديهم صورة غير صحيحة عن الإسلام في مجال أصبح في العصر الحديث من المجالات التي تهتم بها قطاعات عريضة في المجتمعات الإنسانية .

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الديمقراطية الغربية هي الصورة المثلي لتحقيق مبدأ الشوري ، أو أننا نري أن من واجب المسلمين اتخاذها أسلوباً لتطبيق الشوري في المجتمع الإسلامي ، فليس هذا هو الهدف من مناقشتنا لمن يرفضها، ويستنكر تطبيقها في العالم الإسلامي ، ولكن هدفنا هو بيان أنها صورة من الصور المعروضة لممارسة إشراك المجتمع في اتخاذ القرارات المتعلقة بحياته ينبغي النظر فيها ما دام الإسلام لم يحدد شكلا معينا لتطبيق مبدأ الشوري.

كما أنه يجوز لنا تطبيقها إذا لم تتعارض مع ظروف حياتنا ، ومتطلبات عصرنا ، لأن الإسلام لم يحرم علينا تشكيل الهيكل - الذي من خلاله تتحقق الشوري التي أمرنا بها - بالصورة التي نري أن فيها تحقيق مصالحنا ، واستقرار حياتنا.

فإذا كانت الديمقراطية الغربية تحقق لنا ذلك ، فلا بأس - من وجهة النظر

الإسلامية – من ممارستها ، وإذا تطلب الأمر تعديل بعض جوانبها لتتلائم مع تقاليدنا ، فليس هناك ما يمنعنا من ذلك .

حتمية الصراع الفكري في المجتمع

وما يستدل به المعارضون لها من أنها تتطلب :

- وجود أحزاب .
- تتنازع الحكم .
- وتتناحر علي السلطة .

مما يؤدي إلي تفكك الأمة ، وضياع الوحدة التي وصف الله بها أمة الإسلام في قوله تعالي :

﴿ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾.

فليس ذلك إلا دليلا علي عدم فهمهم للتاريخ البشري وعدم إدراكهم لطبيعة الحياة في المجتمعات الإنسانية ، وفقدان إلمامهم بطبيعة الأحداث التي وقعت في صدر التاريخ الإسلامي ، وحاجتهم الشديدة إلي تصحيح قراءتهم ، وفهمهم للنصوص الإسلامية .

إذ لا تخلو حقبة في التاريخ البشري من وجود محاورات فكرية بين فئات مختلفة في تصوراتها لنظام الوجود ، ومتنافرة في اتجاهاتها في مناحي الحياة المختلفة . . . بل إن هذا الاختلاف والصراع الفكري هو من طبيعة الوجود الاجتماعي ، ولازم من لوازم حياة الجماعات البشرية سواء كان ذلك علي مستوي المجتمعات الصغيرة كالأسرة أو الكبيرة كالتجمعات العرقية ، والطائفية والقبلية . . . حتي إنه لا تخلو منه الجماعات العمرية أيضا . . كالأصدقاء ، والقرناء ، ومن يجتمعون حول الهوايات والألعاب المختلفة .

وليس من قبيل المبالغة إذا قلنا : إن اختلاف الآراء وتعدد الاتجاهات في الفكر والتصور لمفهوم الحياة ، وطبيعة مسالكها ، لازم من لوازم التقدم

الإنساني ، فهو لا يختفي من مجتمع إلا ويصاب بالجمود ، والعجز عن الإبداع والابتكار الذي يمد الحياة بوقود يدفعها إلي التقدم ، ويساعدها في الوصول إلي مفاتيح الحضارة والازدهار .

وما ظهر في أمة إلا وتبعه انتفاضة في جميع أوصالها ، وتدفق الدم في كل شرايين حياتها ، فتدب فيها الحياة ، لتملأ أجواءها نشاطاً وحركة ، وتفيض علي أفرادها رقياً وسعادة .

ولم تشذ الأمة الإسلامية عن هذا القانون الطبيعي ، فمن يقرأ التاريخ الإسلامي ، ويفهم أحداثه فهماً صحيحاً ، يدرك أن التقدم الحضاري للدولة الإسلامية في عصورها الأولي - التي نفخر بها الآن ، وتلوكها الألسنة ليل نهار ، لدفع عقدة النقص التي انتابتنا حين أدركنا أننا متخلفون عن الركب الحضاري - لم يظهر إلي الوجود في المجتمعات الإسلامية الأولي إلا نتيجة لحرية الفكر التي سادت آنذاك ، وأفرزت :

- اتجاهات في الرؤي .
- واختلافات في تأويل وتفسير وشرح النصوص.
- ومساجلات حول نظم وأساليب الحياة المتعددة .
- ومناقشات في تحليل ظواهر الكون وأحوال الإنسان المادية والروحية.

انساب كل هذا في جنبات المجتمع ، دون عائق يعرقل مسيرته ، اللهم إلا ما تفرزه طبيعة الإنسان من معارضة هنا ، وإجراءات متعسفة من سلطة هناك ، لم تستطيع القضاء علي تيار فكري له من الأصالة ما يدعم وجوده ، ومن الركائز المنطقية والعقلية ما يشد أزره في مواجهة المتعنتين والمتسلطين ، ومن العناصر الملبية لحاجات المجتمع ومتطلبات الحياة ما يجمع حوله العامة والخاصة، ليستلهموه في نشاطهم ، ويستعينوا به في مسيرتهم نحو المستقبل .

لكن عندما وهن عزم المفكرين تحت ضربات سياط السلطة الغاشمة ،

وضعفت همم المصلحين عن مواجهة أعداء حرية الفكر ، وتسرب اليأس إلي القلوب والأفئدة ، بدأت عجلة التاريخ الإسلامي في التقهقر إلي الوراء ، بل انحدرت بسرعة إلي هاوية التخلف « بفضل » أصحاب العقول الضيقة ، الذين سيطروا علي ساحة الفكر في المجتمع الإسلامي ، فقيدوا الحريات بأوهام سخيفة ، بعد أن غيبوا العقول في متاهات الخرافات والأساطير ، فاندفعت إلي سراديب اللامعقول ، تدور حول نفسها ، وهي لا تدري شيئا عما يحدث علي سطح الأرض في مسيرة الركب الإنساني .

فلما هيأت الظروف الدولية كشف هذا الظلام الدامس ، الذي تعيش فيه المجتمعات الإسلامية ، وانطلق صوت المصلحين يحث المسلمين علي النهوض، واللحاق بالعربة الأخيرة في قطار التقدم خرج من بين الأنقاض من يحرم طرق الخلاص من التخلف ، وهو يجهل أن ما ينادي به المصلحون من حرية في الفكر تنير طريقنا ، وتأخذ بيدنا إلي اللحاق بمن سبقونا في ركب التقدم ، هو في جوهره كان معلماً أساسياً في المجتمع الإسلامي الأول ، ومظهراً من مظاهر وجوده . . . بل كان الركيزة الأولي في بناء الحضارة الإسلامية التي يتغني بها كل مفلس في الحياة المعاصرة ليستر بها عجزه ، ويعيش في ظل هذه النغمة منعما - علي الرغم من إفلاسه في عالم المتسابقين في مضمار التنافس الحضاري - « بفضل » الدهماء الذين تسيرهم العواطف ، وتتحكم في سلوكهم الأهواء والانفعالات .

تحديد المفاهيم

من القضايا التي ينبغي أن نفسح للعقل مجالات في معالجتها :

- قضية تطبيق الحدود .

ذلك أن الأصوات قد تعالت حولها ، ما بين مناد بتطبيقها ، دون أن يبين:

متي ؟

وكيف ؟

لدرجة أن المعارضين لما فهموا من طريقة عرضها في ساحة الفكر المتشدد ، أنها مقصودة لذاتها ، وأن علي الحاكم أن يحمل سيفه ، ويمضي في المجتمع يقطع أيدي الناس وأرجلهم ، ويفصل رءوس الناس عن أكتافهم بمجرد اتهامهم بالسرقة ، أو القتل وقطع الطريق ، فانبروا يعارضون تطبيق الشريعة الإسلامية معللين ذلك بأنها لا تتناسب مع روح العصر ، فهي ثقيلة علي الإنسان الذي تربي في جو « ليبرالي » يكره القسوة في العقاب ، ويرفض كل الأساليب الوحشية في مجال التقويم والتهذيب ، فالإنسان المتحضر - هكذا يقول المعارضون - يقشعر بدنه ، عندما يسمع أن من صور العقاب :

- قطع يد السارق .
- ورجم الزاني حتي الموت .

فهو يعارض دائما وأبدا كل تشريع يتضمن مثل هذا العقاب القاسي ، حتي ولو كان الإسلام الذي يدين به ، معللا هذا الموقف بعلل شتي ، ومبرراً موقفه المعارض لتطبيق الشريعة الإسلامية - رغم تمسكه بالإسلام عبادة وأخلاقا - بمختلف الحجج والبراهين ومن أشهرها :

ما يدعيه من أن تطبيق مثل هذه العقوبات سيؤدي إلي زيادة العجزة في المجتمع ، مما يزيد في عبء الدولة ، فيبدد قواها ، ويشل حركتها ، فتعجز عن مواكبة التقدم والرقي مع غيرها من الأمم.

اقتنع كثير من المسلمين - وخاصة خريجو المدارس الأجنبية - بهذا الاتجاه، غير أن بعضهم أيده سلبيا ، وعارضه وجدانيا . وآخرون ناصروه بكل قوة متاحة لهم ، فهم يناصرونه بالقلم إن كانوا علي درجة تؤهلهم لذلك ، ويدعمونه بالسلطة والسلطان ، إن ملكوا زمام الحكم ودفة القيادة والتوجيه.

وينبغي علي هؤلاء المعارضين لتطبيق الشريعة الإسلامية - سواء كانت معارضتهم سلباً أو إيجاباً - أن يعلموا أن الشريعة الإسلامية ليست هي قانون العقوبات فقط ، بل هي منهاج لكل جوانب الحياة الإنسانية ، ولا يمثل قانون العقوبات فيها إلا جزءا ضئيلا بالنسبة للمجموع الكلي .

وبناءً عليه فمعارضة تطبيق الكل بسبب جزئية صغيرة أمر غير مقبول ، ولا يستساغ عقلاً التسليم به .

أضف إلي ذلك أن ما يبدو من قسوة في عقوبات التشريع الإسلامي ليست كما يصورها هؤلاء المعارضون ، إذ ليس في التشريع الإسلامي ما يحتم قطع يد كل سارق، أو رجم من يتهم بالزنا، فهناك من الشروط ما يحصر تنفيذ هذه الحدود في دائرة ضيقة جدا ، لدرجة أن تطبيقها قد يصبح في حكم النادر، أو في دائرة المستحيل ، إذ إن الرجم لا يكون إلا بالاعتراف ، أو بشهادة أربعة ، يرون العملية بالتفصيل وبأدق مظاهرها . . . ولا أظن أن هذا ممكنا !!!

كما أنه من الجائز شرعاً تعليق هذه العقوبات ، لو لم تتوفر شروط تنفيذها، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام المجاعة ، حيث لم يطبق عقوبة قطع يد السارق.

كيف يقال : إن قسوة العقوبات في الشريعة الإسلامية أمر غير محتمل في ظل الحياة المعاصرة ، في حين أن رسول الله ﷺ قال : « ادرءوا الحدود بالشبهات » فأدني شبهة تسقط الحد !!! .

كما يضيق من دائرة تنفيذ الحدود أيضا كثرة الآراء الفقهية في المسألة الواحدة ، مما يجوز للجنة التشريع القضائي أن تختار من هذه الآراء أقربها إلي روح العصر ، فتجعله أساسا للعقوبة ، ومبدأ من مبادئ القوانين الملزمة للقضاء .

ومن الحقائق المعروفة أن من الفقهاء من تمسك بظاهر النص ، ومنهم من التزم بروحه بدرجات متفاوتة ، بحيث يجد المتشددون فيها ما يشبع ميولهم ، ولا يفتقد المتساهل ما يدعم اتجاهه في صياغة قواعد قانونية ، تتفق مع روح العصر، وفي الوقت نفسه لا تفقد هويتها الإسلامية [١].

٤ - مراجعة موقف المسلمين من أهل الأديان الأخري :

من المعروف أن محمداً ﷺ أرسل إلي الناس كافة :

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ [٢].

فرسالته علي عكس الرسالات السابقة ، موجهة لكل الناس ، إذ بينما أرسل الرسل إلي أقوامهم كما بين ذلك القرآن الكريم في آيات عدة مثل قوله تعالي :

(١) تذهب السلفية في المغرب إلي أنه ليس من اللازم تطبيق الشريعة بشكل مباشر وحرفي كما تدعو إلي ذلك بعض الجماعات الإسلامية المتشددة المنتشرة اليوم عبر العالم العربي والإسلامي « فهي - كما يقول د. الجابري - تري من الواجب ألا يبتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة وللوصول لذلك يجب العمل علي أن يصبح منظوراً للفقه الإسلامي أصولا وفروعا كمادة لتشريع مدني عام ، ويضيف (علال الفاسي) « وكل هذه الأشياء لا يمكن أن تتحقق في الحكومة المسلمة إلا إذا خضع هذا الاجتهاد الجديد في التشريع لنواب أكفاء ضمن مجلس تختاره الأمة ويصبحون فيها مكان أهل الحل والعقد الأولين .. فالسلفية الجديدة ترفض بالطبع لادينية الدولة « ولكنها بالمقابل لا تدعو إلي حكومة دينية ثيوقراطية ، بل تقتصر علي المناداة بجعل « الحكومة الإسلامية حارسا علي الأخلاق والفضيلة في وسط الأمة ، وتطالبها بتهيئة الوسائل التي تسهل علي الفرد القيام بالواجبات الفردية والاجتماعية وتحمله عن طريق الاقتداء أو المتابعة ، علي السلوك الحسن في علاقته مع عائلته ومع إخوانه ومع الأجانب عنه [الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي ص ٢٠٥ - ٢٠٦].

(٢) سبأ : ٢٨.

﴿ وإلي عاد أخاهم هودا ﴾ [1].

وقوله : ﴿ **وإلي ثمود أخاهم صالحا** ﴾ [2].

وقوله : ﴿ **وإلي مدين أخاهم شعيباً** ﴾ [3].

وقوله : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلي النور وذكرهم بأيام الله** ﴾ [4].

وقوله : ﴿ **وإذ قال عيسي ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم** ﴾ .

أرسل الله محمداً إلي الناس جميعاً يقول تعالي :

﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ [5] .

إذ لم يرد في القرآن الكريم آية واحدة تدل علي أن محمدا أرسل للعرب - وهم قومه - خاصة ، بل دلت الآيات علي أنه أرسل للعالمين :

﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [6].

كما بين ذلك الحديث النبوي بوضوح ، حيث ورد عنه ﷺ أنه قال :

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبلي :

- نصرت بالرعب مسيرة شهر .
- وجعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهورا .
- وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي .
- وأعطيت الشفاعة .
- وكان النبي يبعث إلي قومه خاصة ، وبعثت إلي الناس كافة » [1].

---

(١) هود : ٥٠ . (٢) هود : ٦١. (٣) هود : ٨٤.

(٤) إبراهيم : ٥. (٥) الصف : ٦. (٦) الأعراف : ١٥٨.

(١) صحيح البخاري .

وعليه فكل من بلغه دعوة الإسلام وجب عليه الإيمان بها ، وإلا أصبح من الكافرين ، غير أن الذين رفضوا الدخول في الإسلام أصناف ، باختلاف عقائدهم وأديانهم :

- فمنهم من يعتقد بدين سماوي ، كاليهودية والنصرانية ،
- ومنهم من يدين بتشريعات غير سماوية ، كالهندوسية والبوذية ،
- ومنهم من يرفض الاعتقاد بأي دين كالماديين .

فإذا بلغ الدعاة كلمة الإسلام لهؤلاء فطلبوا من الملحد أن يكف عن إلحاده ويعترف بوجود الله ، وأمروا المشرك أن يخلص العبادة لله ، ورجوا أهل الكتاب أن يضيفوا إلي إيمانهم بأنبياهم ، الاعتراف بمحمد ﷺ ، والإيمان به رسولا ، والتصديق بما جاء به من آيات بينات ، فرفضوا جميعاً الامتثال لأمر الله ، فأنكروا نبوة محمد ﷺ ، ولم يصدقوا ما جاء به من وحي سماوي . . . فماذا يكون تصرف الدعاة إزاء هذا الرفض ؟.

وكيف يتعامل المسلمون مع هؤلاء الذين يدينون بدين غير الإسلام ؟.

أو كيف تكون علاقة المسلمين بمن ينكر وجود الله ؟

يركز المتشددون في العالم الإسلامي المعاصر علي هذه المسألة ، ويبرزونها بصورة تقض مضاجع أصحاب القرار السياسي ، وتفجر موجات من الآراء المتعارضة ، والمتناقضة في محيط أرباب الفكر ، وتنشر ضباب الحيرة والارتباك في ثنايا جهود العاملين في المؤسسات التي تتعامل مع دول العالم ومنظماتها.

كما يصاب الأفراد من جراء هذا العجز في مجال التعامل مع غير المسلمين ، حيث يمتنعون كلية عن الاتصال بهم ، أو بالتردد في التعامل معهم فتارة يتجاهلون الأوامر الدينية - حسب فهم المتشددين - فيتعاملون مع غير المسلمين وأخري يحاولون تبرير هذا التعامل بأسباب شتي.

ومما لا شك فيه أن هذا الوضع يحتاج إلي بيان موقف الإسلام من أصحاب

الأديان الأخري ، سواء كانوا يعيشون معهم في وطن واحد ، أو كانوا متجاورين - أو متباعدين - في الأوطان ، خاصة وأن النظام الدولي المعاصر يحتم علي كل من يعيش علي هذه الكرة الأرضية أن يقبل التعامل بشكل أو بآخر مع سكان هذه الكرة ، لأن مصالح الشعوب صارت متشابكة ، واتصالهم ببعضهم أصبح من الأمور الحتمية ، حيث لا مفر لأي إنسان في أي مكان علي وجه الأرض من التعامل مع الآخرين ، سواء كان علي مستوي حكومته ومؤسساته الرسمية ، أو في مجال الثقافة والمعرفة ، أو في محيط تناول السلع التجارية بأنواعها المختلفة واستخداماتها المتعددة التي اقتحمت حياة كل الناس.

ومن هنا ينبغي مناقشة علاقة المسلمين بغيرهم بأسلوب عقلي ، بعيداً عن الشعارات والتشنجات ، آخذين في الاعتبار فهم النصوص التي حددت العلاقة في ضوء معطيات العصر وفي إطار ما يعود علي المسلمين بالخير في حياتهم ، ويساعدهم علي حماية عقيدتهم والمحافظة علي هويتهم الإسلامية.

فإذا تناولنا هذا الموضوع في ضوء القرآن الكريم ، نجده ينطلق في رسم حدود المعاملة مع غير المسلمين من قاعدة عامة أساسية ، ألا وهي :

أنه لا يجوز لمسلم أن يجبر أحداً علي اعتناق الإسلام إذ لم يعطِ الله هذا الحق للنبي نفسه ، فكيف يجوز لغيره ، يقول تعالي :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾.[1].

ويقول : **﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين ﴾** [2].

فما دام الإسلام قد أعطي للإنسان حرية التعبير عن آرائه ... حتي في مسألة اعتناقه دينا ، فلا يجوز لأي فرد - أو جماعة - الضغط علي غير المسلمين ، ليجبروهم علي الدخول في الإسلام ، بل عليهم فقط عرض

(1) البقرة : ٢٥٦. (٢) يونس : ٩٩.

الدعوة عليهم بأسلوب واقعي ، منطقي ، بعيد عن التلويح أو التهديد ، فضلاً عن القتال .

وعليه فمن يحاول حث المسلمين علي حمل السيف لنشر الإسلام ، فقد انحرف عن طريق الحق ، ولهذا لا يجوز له أن ينصب نفسه متحدثا باسم الإسلام ، لأن العقيدة الإسلامية لا تقر الاعتداء علي الآخرين ، بل تجيز فقط الدفاع عن النفس ، ومقاتلة من يعتدي علي الإسلام والمسلمين .

وهناك فرق كبير بين الدفاع والاعتداء !!

ويترتب علي هذا من الناحية العملية أن يعيش غير المسلم مع المسلمين في وطن واحد ، ومن الطبيعي أن يتجاوروا في العمل وفي السكن ويشتركوا في مختلف أنشطة الحياة الدنيوية .

فكيف نظم الإسلام هذه العلاقة ؟.

القتال والجزية في المجتمع المعاصر

وصي الإسلام المسلمين بأهل الكتاب - وهم اليهود والنصاري - خيراً فجعل لهم الحق في إقامة شعائرهم المقدسة والحفاظ علي هويتهم الدينية ، وسمح لهم برعاية تراثهم ، والتمسك بتقاليدهم وعاداتهم ، ما دام ذلك في حدود معتقداتهم ، وفي إطار الواجبات التي تفرضها عليهم نصوصهم المقدسة. وما عدا ذلك فهم خاضعون للنظام العام الذي يحكم شئون الحياة اليومية ، إلا الدفاع عن الوطن ، فقد أعفاهم من هذا الواجب في مقابل دفع ضريبة محددة وهي ما يعرف باسم : « الجزية » لأن شئون الدفاع في العصر الأول كانت خاضعة لمبادئ العقيدة ، إذ كانت النصوص المقدسة هي التي توجه لقتال ، وترسم استراتيجيته ، وما دام غير المسلم لا يخضع لهذه النصوص بحكم اختلاف عقيدته ، فلم يجز - منطقيا - تكليفه بالقتال ، لكن لما كان لقتال في الإسلام للدفاع عن الوطن - وليس لإجبار الآخرين علي الدخول

فيه - بمن فيهم من مسلمين وغير مسلمين ، وجب علي غير المسلم الإسهام فيه بما يستطيع ، ولما لم يكن في مقدوره من ناحية العقيدة - الانخراط في مؤسسة تنفذ تعاليم لا يعتقدها ، فقد وجب عليه الإسهام بطريقة أخري ، ألا وهي : مساعدة المقاتلين بالمال .

هل يجوز بناءً علي هذا أن ننضم إلي المتشددين في دعوتهم في الحاضر إلي وجوب فرض الجزية علي أهل الكتاب ؟

هذه الدعوة تستثير العاطفة أكثر مما تخاطب العقل ، إذ ينفعل الداعي - والمدعو أيضا - بها دون أن يفكر منطقياً في الظروف الراهنة ، ودون أن يبحث ظروف وملابسات عدة منها :

- اختلاف طبيعة القتال ودوافعه في الدولة المعاصرة عنه في صدر الإسلام، حيث كان الدافع إليه في العصور الأولى تمكين الدعاة من توصيل كلمة الإسلام إلي الشعوب المغلوبة علي أمرها ، وليس إجبارها علي الدخول فيه بالإضافة إلي أن الدين كان هو السبب الرئيسي في تحريك غير المسلمين إلي شن القتال علي الدولة الإسلامية ، مما جعل القتال في ذلك العصر ينطلق من أساس ديني ، ويسير في مسارات دينية ، الأمر الذي جعل اشتراك غير المسلمين - الذين يعيشون في مجتمع إسلامي - فيه غير مقبول دينيا ، ولا مسلم به منطقيا ولكن :

لما كان القتال يتضمن - بجانب الدفاع عن العقيدة - حماية الوطن الذي يستظل به غير المسلم.

وجب عليه أن يسهم في الدفاع عنه بما يستطيع من نفس ومال . . غير أنه :

لما كانت عقيدته تمنع إسهامه فيه بالنفس . . .

فليس أمامه إلا الإسهام بالمال ، وهو ما عرف بـ « الجزية » .

لكن دوافع القتال وطبيعته اختلفت في الدولة المعاصرة إذ لم يعد هناك

حاجة للقتال في سبيل تأمين وصول كلمة الدعاة إلي الشعوب ، فقد أصبحت وسائل نشر الكلمة في متناول الجميع سواء كانت مسموعة بالصورة أو بدونها، أو مكتوبة ، وبذلك سقط أهم سبب للقتال في الإسلام ألا وهو :

« تأمين وصول الدعوة الإسلامية إلي كل إنسان علي وجه الأرض ، مهما بعدت به الأوطان ونأت به الديار والأصقاع » . كذلك توارت الأديان حتي كادت تختفي تماما من ساحة تحريك الجيوش للغزو الديني أو نشر العقائد ، وتركزت - أي الدعوة - في أساليب أخري ، كوسائل الإعلام والأنشطة الاجتماعية والثقافية والصحية ، تاركة مجال القتال للمصالح الاقتصادية ، والهيمنة السياسية التي تؤمن هذه المصالح ، فالمحرك الأول - ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إنه الوحيد بصرف النظر عن الاستثناءات النادرة - لتجييش الجيوش، وشن القتال هو السيطرة علي مصادر المواد الأولية ، وضمان سوق للسلع المنتجة ، حتي تحقق الدولة الرفاهية لشعبها لأن هدف الإنسان في الحياة تركز حول تأمين حياته اقتصاديا ، كي يتمتع بحياة رغدة ، تؤمن له كل ما يحتاجه ، وتسهل له جميع وسائل الراحة في جميع مجالات الحياة .

فإذا كان هذا هو الشأن في ساحة الصراع الدولي اليوم ، فيجب علينا أن نعي ذلك ونركز عليه في استراتيجيتنا الدفاعية ، ونتحدث بلغته في وسائل إعلامنا ، وإلا تحدثنا بلغة لا يفهمها المجتمع الدولي ، ولا تقبلها الأوساط المؤثرة في إدارة الصراع وتوجهيه ، فنخسر المعركة قبل أن يبدأ النزال وتتشتت أصواتنا فلا نجد من يسمع لنا أو يتعاطف معنا ، لأننا نتكلم بلغة لا يفهمها المجتمع الدولي المعاصر ، وتقوم حجتنا علي مسلمات أهملتها الدولة المعاصرة، أو تناستها حتي يتناغم وقع مسيرتها - ولو ظاهرياً - مع رياح العصر ، فتسير مع الركب ، وتحافظ علي موقعها في خضم التيارات المتدافعة كي لا تتخلف تدوسها الأقدام ، وتطويها صفحات التاريخ .

وليس معني هذا أننا يجب علينا أن نهمل الجانب الديني في مجال التعبئة

المعنوية لمواجهة التحديات ، أو نتغاضي عن واجباتنا الدينية في مجال التربية والتعليم ، أو نتحرر من واجب نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله في الأرض لأننا لو فعلنا ذلك خسرنا ديننا ودنيانا ، أي خرجنا من عقيدتنا التي تحتم علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتفرض علينا بذل الروح والمال في سبيل الزود عن مبادئنا وتقاليدنا الإسلامية ، بالإضافة إلي أننا لو نحينا الدين جانبا فقدنا هويتنا ، ومن لا هوية له فلا وجود له ، وإن كان لا يزال علي قيد الحياة ، لأنه يعيش كما تعيش الأنعام يأكل ويشرب ، ويقدم نفسه حقل تجارب لأفكار الآخرين ومذاهبهم الاجتماعية وتياراتهم السياسية علي اختلاف أنواعها وتعدد فصائلها . . . ولكن المقصود من تغير ظروف وملابسات الصراع الدولي ، الذي يقتضي منا أن نتأقلم معه :

هو مراجعة « التكتيك » ، وليس التنازل عن « الإستراتيجية » ، وفرق كبير بين « الاستراتيجية » وهي الأهداف التي ترسمها الأمة في حياتها - وهي بالنسبة للمجتمع الإسلامي : إعلاء كلمة الله - وبين « التكتيك » : أي طرق وأساليب إدارة الصراع فالمرحلة الراهنة تقتضي منا أن يتركز « تكتيكنا » علي إبراز المصالح الاقتصادية في خريطة مواجهتنا للتحديات، والظهور أمام المجتمع الدولي بمظهر من يريد الحفاظ علي التعايش السلمي في إطار العمل الاجتماعي، بحيث يتيح لنا الآخرون مكانا لائقا مع المتنافسين في حلبة التقدم العلمي ، حيث يتاح لكل دولة نقل واستخدام التكنولوجيا الحديثة بما يتناسب مع ظروفها ، ويتلاءم مع إمكانياتها ، بالإضافة إلي عدم احتكار المواد الأولية، أو الاستحواذ علي الأسواق العالمية .

أما الأهداف الدينية فهي وإن كانت أساسية علي خريطة اهتماماتنا ، فلا ينبغي أن تتصدر الحديث مع الغير في مجال التعامل الدولي ، بل يجب طبقا للظروف الدولية المعاصرة أن تكون كامنة :

- تحرك جميع المسلمين وتحدد اتجاهاتهم ، دون أن تظهر للآخرين في ساحة

المناورات ، أو علي مائدة المناقشات والمحاورات .

- ترسم المناهج ، وتوضح الطرق دون أن يعلن ذلك علي الملأ ، كي لا يستخدم أحد ذلك سلاحا يقلب به المجتمع الدولي علينا ، فتفسد خططنا ، ويضيع عملنا هباء.

فإذا تغيرت الظروف الدولية ، كان بإمكاننا أن نغير من هذا « التكتيك » ، أو نعدله حسب الظروف الجديدة ، وطبقا لوضعنا السياسي والاقتصادي والعسكري ، ويمكن أن يصل التغيير في المستقبل أن يكون أسلوبنا هو التعامل في المجتمع الدولي علي أساس إبراز الهوية الدينية كقاعدة للعلاقات الدولية ، إذا كان لدينا من القوة ما يمكننا من ذلك دون تهديد لمصالحنا . . وحتي يحين ذلك الوقت فليس أمامنا سوى التعامل مع الدول علي أساس ما بيناه آنفا.

وهذا ليس خروجاً علي الإسلام ، ولا تنصلاً منه بل اتباعا لسنة محمد ﷺ واسترشادا بما اتبعه مع المعارضين للإسلام فقد عقد صلح الحديبية مع كفار قريش ، ونظم العلاقة بين المسلمين واليهود في دار الهجرة كما تعامل المسلمون عبر تاريخ الإسلام مع غير المسلمين علي أساس التعايش السلمي ، سواء مع الذين أقاموا في المجتمع الإسلامي أو احتكوا به بحكم الجوار الدولي ، أو الاتصال في مناحي الحياة من : تجارة وفكر وثقافة .

فإذا كان هذا قد حدث في عصور سيطر الدين فيها علي الشعوب ، فحركتهم في ساحة الصراع وميادين القتال ، فمن باب أولي ينبغي أن تقوم علاقة أوسع منها في العصر الحديث ، حيث اختفي الدين - أو كاد - من ساحة اهتمام غير المسلمين ، وتراجع عن ميدان التدافع والتزاحم للسيطرة علي مقومات الدولة ومصادر قوتها ونفوذها .

فإذا جهر أحد بالعداء للمسلمين علي أساس ديني ، فليس أمامنا إلا أن نعبئ كل قوانا لمواجهته ، فنستخدم الدين عندما يكون ذلك عنصراً حاسماً في

معركتنا، ونجهر بالحديث بلغة العصر ، إنْ رأينا أن في ذلك دعماً لجبهتنا ، وطريقاً لوصولنا إلي الحصول علي حقنا ، وإن اقتضي الأمر إغفال الحديث عن العقيدة مع الخصم في سبيل الحصول علي تأييد دولي فلا بأس في ذلك ، لأن نجاحنا تدعيم لعقيدتنا ، وتأمين لديننا ، ومحافظة علي هويتنا الإسلامية ، إذ ما دام الهدف ثابتا وهو الحصول علي حق المسلمين كاملاً والإرادة قوية ، فلا حرج في اتباع أسلوب يبدو من ظاهره أنه لا يتسم بسمات دينية ، ولا يحمل راية العقيدة ، لأن العبرة بالنتيجة ، ألا وهي : الوصول إلي إحقاق الحق وزهق الباطل ، فذلك مبدأ أساسي في الشريعة الإسلامية .

تَعقَّل ولا تتشنَّج

أما إذا تشنجنا وتعصبنا ، فتعالت صيحاتنا بالجهاد المقدس ، ونحن ضعفاء لا نستطيع جمع الدول الإسلامية حوله ، فضلا عن إمكانية تنفيذه في مواجهة القوي العالمية ، فلن يكون ذلك سوى التهور ، وإلقاء المجتمع الإسلامي في مفرمة القوي العالمية ، حيث لا يسمع أحد نداءنا ، وإن سمع ، فلن يحرك ساكناً لنجدتنا ، لأن أسلوبنا غريب علي سمعه ، ومنطقنا بعيد عن فهمه ، فنحن في نظر المفهوم الدولي المعاصر :

- متخلفون لا ندرك الأسلوب الحضاري.
- وعاطفيون ، ضللنا طريق الإدراك العقلي.
- وخياليون لم نفهم متطلبات الواقع.
- وبعضهم يري - بناءً علي التصرفات الفردية المتشجنة - أننا متطرفون ، نهدد أمن البشرية ، ونهز استقرارها ، وبالتالي فنحن دعاة هدم وتخريب !!

هل أفادنا التشنج ، ودعم قضيتنا ؟.

أليس من الأحسن أن نفكر ملياً ، ونحكم عقولنا في تصرفاتنا ، فنبتعد عما يقلب علينا الرأي العام العالمي.

ألا يحتم علينا وضعنا المعاصر أن نعيد النظر في أسلوب تعاملنا مع الآخرين

بما يخدم مصالحنا في إطار عقلاني منطقي ، متناغم مع إيقاع العصر ، ومنسجم مع الأصوات الداعية إلي السلام والتعايش السلمي ؟

إننا إن فعلنا ذلك سنصل إلي وضع دولي ، يمكننا من المشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية في العالم ، ويتيح لنا الإسهام في مسيرة التقدم والرقي ، فإن حدث ذلك فلسوف يكون للإسلام شأن في المجتمعات الدولية ، لأن المسلمين - بحكم قربهم وتفاعلهم مع الشعوب المتحضرة - سيقدمون الصورة الصحيحة للإسلام ، وربما يكون ذلك حافزاً لغير المسلمين علي التفكير في الإسلام ، الأمر الذي قد يؤدي إلي الاقتناع به واعتناقه دينا .

٥- التركيز علي واقع الحياة المعاصرة :

تعالت الأصوات في منتصف قرننا الحالي بالعودة إلي سيرة السلف الصالح، والالتزام بما جاء في تراثنا من مبادئ ونظم وتعاليم ، والتمسك به ، مهما كانت الظروف والأحوال ، لأن ذلك :

- هو الطريق الوحيد - طبقا لمفهوم دعاة هذا التيار الذي أطلق علي نفسه اسم : « الصحوة الإسلامية » ، وعرف في مجال الفكر الدولي « بالتيار الأصولي » - لإخراجنا من المأزق الذي حصرنا الاستعمار فيه .
- والأسلوب الصحيح الذي نستعيد به قوتنا ، ونسترد به ما ضاع منا عبر قرون القهر والإذلال ، وسنين الضعف والتخاذل الذي أصابنا من جراء الاستعمار العسكري والغزو الثقافي .
- والمنهج الواضح الذي يقودنا إلي عالم يستطيع المسلم فيه أن يكون سيد نفسه ، وقائد مسيرته ، لا يخضع فيه لأحد ، ولا يستجدي فيه ما يحتاج إليه من إنسان ، فهو في ظل هذا المنهج قادر علي العطاء ، شجاع في المواجهة ، صلب في المحاورة ، له من الإمكانات ما يستطيع به أن يرفع رأسه في المحافل الدولية ، والمنتديات العالمية ، وعنده من القدرة علي المناورة ما يمكنه من إقناع الآخرين بمبادئه ، وتعاليم دينه . . .

هذا صحيح ، لو خطط لهذه الدعوة تخطيطا بعيدا عن :

- حماس الجماهير .
- وطموحات بعض الضعفاء من المفكرين ، الذين لا همَّ لهم سوي الكسب المادي ، والاستعلاء الأدبي بين الأميين ، وأنصاف المتعلمين .
- وسيطرة المؤسسات الرسمية التي تسعى إلي بسط النفوذ عن طريق الجانب الروحي ، حيث تكون قيادة الجماهير سهلة ، وتوجيههم إلي ما تريده السلطة الرسمية ، متاحا وميسرا .
- وأخيرا - وهو الأهم - إذا استخدم العقل في فهم التراث ، وتنقيته مما علق به عبر مسيرة التاريخ من أوهام وخرافات ، غيبت العقول ، وطمست الأفهام ، فأصبح المسلم سلبياً في المجال الدنيوي ، متقوقعاً في زوايا النسيان علي خريطة الإبداع والابتكار ، ومتوارياً خلف الأستار في ساحة التدافع والتسابق الحضاري ، واهماً أنه لن ينال رضاء الله إلا إذا اعتكف في المسجد ليل نهار ، وعزف عن الدنيا وما يتعلق بها ، ونفر من الحياة ومتاعها . . .

ومن يحاول تغيير هذا المفهوم في ذهنه ، فهو إما زنديق أو متآمر مع الأعداء ضد الإسلام !!!

هل أمرنا الإسلام بهذا ؟.

- عزوف عن الدنيا ، فلا نسهم في حضارتها ، فنستعمر أرضها ، ونبحث في أسرار خلقها ، ونستخرج من باطنها ما يفيدن ، ونوجه ما عليها إلي ما يعود علينا بالمنفعة في حياتنا ؟.
- تقوقع داخل الذات ، فلا نمارس شيئاً ، يفجر طاقاتنا ، ويشحذ هممنا إلي العمل النافع للحياة ، وينمي فينا القدرة علي الابتكار والإبداع ؟.
- اهتمام بالفروع التي لا وزن - بل أحيانا لا أصل - لها في مجال الالتزام بما أمر الله به ، وترك الأصول التي لا تسير الحياة إلا بها ، ولا تقوم

حضارة إلا عليها ، فهي ركيزة أساسية في بناء الحضارات ، وإرساء قواعد التقدم والرقي .

الحوار خير من الصدام

لقد اختلط الحابل بالنابل في ساحة العمل الإسلامي المعاصر :

إذ بينما نجد :

- جماعات ترفع شعار السنة ، وتتمسك به ، وتدخل في معارك تصل في بعض الأحيان إلي حد الاقتتال في سبيل الالتزام والدعوة إلي إحياء سنة . . . مجرد سنة ، في حين يتناسي أفراد هذه الجماعة - وفي معظم الأحوال يجهلون - فرضاً من الفروض التي أمر الله بها ، ويهملون مبادئ إسلامية لا غني عنها في قيام المجتمعات ، وتأسيس بناء الحضارات ، ويغفلون عن منهج القرآن الكريم في مراعاة أحوال المدعوين ، وظروف من يوجه إليهم الخطاب الإسلامي ، فهم يصرون علي تنفيذ أمور شكلية بالعنف أو التسلط ، ويتصايحون بشعارات تسلب لب الجماهير ، وتستولي علي أفئدتهم ، دون ن يكون لديهم منهج واضح لتطبيق ما ينادون به ، وليس لديهم قدرة تمكنهم من عرض ما لديهم بأسلوب عقلي يستوعب المستجدات ، ويراعي معطيات العصر ، ومتطلبات الحياة المعاصرة ، مما يجعلهم في موقف من لا يحسن توجيه الرسالة ، لأنه لم يفهم أفكار من وجه إليه هذه الرسالة ، ولم يقف علي مناهجه ، وبالتالي لم يعرف لغته . . . وهيهات أن يكون له أثر فعال في عالمنا المعاصر ، اللهم إلا التأثير العاطفي في أوساط الجماهير المسلمة ، وهي بعيدة عن اتخاذ القرارات المصيرية ، فضلاً عن أنها قد تتحول إلي النقيض تحت تأثير الأجهزة العلمية ذات التأثير الجبار في تكوين الرأي العام ، وتوجيهه بأسلوب علمي دقيق.

- وأخري تنطوي علي نفسها ، وتتقوقع داخل أروقتها ، تردد ترانيم وتسبيحات ، وتمارس أنواعا شتي من الطقوس الروحية ، مصحوبة بالرقص

والطبول وغير ذلك من الأساليب التي تنزع الإنسان من عالم الإدراك إلي جو ينسي فيه كل همومه ويتخلص - بطريق الإيحاء - من وطأة الحياة التي ينوء بها كاهله .

وهذا هو سر لجوء بعض من قست عليهم حياتهم ، وطحنتهم عجلة الزمن إلي هذه المجالس ، فهم يريدون نسيان ما أصابهم من آلام الدهر ، ويرغبون في التخلص من الأثقال التي حطت علي كاهلهم في ساحة التنافس والتطاحن في مجالات الحياة المختلفة .

وتدعي هذه الجماعة أن طريقها هو طريق الخلاص من الدنيا وآثامها ، وأن طقوسها توصل إلي نيل رضاء الله وثوابه ، فمن يريد النجاة من مآسي الحياة ، والفوز بالجنة ، فعليه أن يترك الدنيا وما فيها ، وينضم إليها ، ويمارس طقوسها.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الدعوة تجد آذانا صاغية في أوساط عامة الناس، وخاصة من تنكرت له الدنيا منهم ، وقست الحياة عليه ، فلم يجد فرصة في مجال العمل ، أو أصيب بصدمة من جراء انتكاسة في مسيرة حياته، لم يستطع التغلب عليها . . . وما أكثر هؤلاء في المجتمعات الإنسانية !!!

- وثالثة أعلنت سخطها علي مؤسسات الدولة ، بحجة أنها لا تحكم بكتاب الله ، ورفضت التعامل مع المنظمات العالمية ، تحت دعوي أن الإسلام يحرم اتخاذ أعداء الله أولياء ، ويستدلون علي ذلك بقوله تعالي :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾[١].

كما يسترشدون بما ظهر في المجتمع الإسلامي من حوادث فردية ، ابتداءً من منتصف القرن الرابع الهجري ، حيث ظهر التعصب بين المسلمين

(١) الممتحنة : ١ .

والنصاري نتيجة لهبوط المستوي المعيشي والثقافي - طبقا لرأي الدكتور حسين مؤنس - للناس جميعا ، وسيطرة الجهلاء والرعاع وأدعياء الدين.

وقد انحصر نشاط هذه الجماعة - بناءً علي هاتين الدعامتين وهما : آية المتحنة ، واعتقادهم أن الدولة لا تحكم بكتاب الله - في دائرة العمل علي الاستيلاء علي مقاليد الحكم ، وسلكت في سبيل ذلك طرقا عدة ، ابتداءً من تعبئة الجماهير عاطفيا ، واستغلال سخطهم علي الحكام من جراء الخلل البين في توزيع الثروة القومية ، وتوجيههم إلي المعارضة ، فالمواجهة ... حتي الاصطدام المسلح.

والغريب أن يحدث هذا ، دون أن يجلس الطرفان وجهاً لوجه للمحاورة والمناقشة ، لأن خطوط الاتصال قد انقطعت من أول الطريق ، وأساليب التفاهم غابت عن إدراك كل طرف .

ولو أحسن كل النية فيما يراه صالحاً للأمة ، وحاول أن يعرض رأيه كما أمرنا الله ورسوله ، وكما تحتمه أيضا أساليب الحضارة الحديثة في مجال تفاعل الآراء مع بعضها البعض في المجتمعات المعاصرة ، لاختفت صور العنف ، والعنف المضاد من مجتمعاتنا ، أو علي أقل تقدير ، لأصبحت حوادث فردية، بدل أن تكون ظاهرة عامة ، كما هو الحال الآن في كثير من الأقطار الإسلامية.

- كذلك لو أفصح الإسلاميون عن منهجهم بوضوح ، فبينوا أنه لا يتنافي مع قيام نشاط حضاري ، ولا ينعزل دولياً عن كل من عنده الاستعداد للتعامل معنا علي أساس إنساني ، يحفظ لكل هويته ، ويعطي لكل ذي حق حقه ، ويحمي كل القيم الإنسانية والدينية ، إذ يقوم علي احترام العقائد والقيم في ظل تبادل الخبرات الإنسانية والمنتجات الحضارية . . .

لو أحسن الإسلاميون توضيح هذه المبادئ الإسلامية بعيدا :

- عن الجمود حول آراء بشرية أنتجتها ظروف تخالف ظروفنا ، فهي مرتبطة بعصور انقضت .

- وعن العنف المسلح الذي لا يتفق مع مبادئ الإسلام ، إذ لا يجوز رفع السلاح في وجه مسلم ، مهما كانت الظروف . .

لو حدث هذا ، لما وجدت الحكومات حجة تعتمد عليها في استعمال العنف مع هذه الجماعات . . .

وفي مقابل هذا التصرف من هذه الجماعة ، ركبت السلطة رأسها ، فظنت أن هيبتها ستتبدد ، ويفلت الزمام من يدها ، لو لم تستخدم كل ما لديها من قوة للقضاء علي هذا التيار الديني ، فلو تدبرت الأمر بعقلانية ، فمدت جسور النقاش الفكري مع هؤلاء ، ووقفت علي مطالبهم ، فلربما استطاعت توضيح جوانب غابت عن فكرهم ، وبينت لهم أن منهجهم يحتاج إلي تعديل ليتواكب مع طبيعة العصر ، ومتطلبات النظام العالمي . . .

ولكن . . . اغتر هؤلاء بما لديهم من قوة وسلطان ، وتمادي الآخرون في تصوراتهم عن الإسلام . . تلك التصورات التي قد تبدو في بعض جوانبها بعيدة عن الواقع . . . فحصل الصدام ، وما زالت رحاه دائرة [١].

ومما يزيد في اشتعاله ويؤجج ناره ، ما تقوم به جماعة من المفكرين الذين يتهجمون علي الإسلام . . تارة بالأسلوب الصريح ، وأخري بالغمز واللمز ،

---

(١) إن أهم استنتاج تتوصل إليه دراسة نقدية للظروف الراهنة السياسية في العالم العربي ، هو أن ما يطلق عليه اسم : « العنف الديني » يستتر وراءه - في معظم الأحيان - العنف الذي تمارسه النظم التي تفضل أن تقدم خصومها الذين يتحدونها في صورة «الشيطان» ، وذلك لتتجنب مواجهة نتائج الانتخابات . وعندما تغلق الأنظمة - بهذه الطريقة - أبواب الوصول إلي الساحة السياسية الشرعية ، أمام تيار الإسلام السياسي فهي تدفعه إلي ممارسة هذا « العنف » لكي تبرر لجوءها إلي القمع لحماية كيانها. بورجا ص ٧١.

ويتخذون من ممارسات بعض الذين يمثلون التيار الإسلامي مادة للهجوم علي الإسلام وتصوير مبادئه بصورة تفزع الآخرين ، وتخوفهم من المآسي التي يمكن أن تحل علي المجتمع ، إذا ما وصل الإسلاميون إلي مراكز القيادة في الأمة.

رفع هذا الاتجاه الفكري شعار العلمانية في مواجهة ما يدعو إليه الإسلاميون من عدم الفصل بين الدين والدولة ، وكرس أصحابه حياتهم الفكرية ونشاطهم الحركي للحيلولة دون وصول أصحاب التيار الإسلامي إلي مواقع اتخاذ القرارات المصيرية في حياة الأمة ، وطفقوا يستشهدون علي صحة مواقفهم ، وسلامة اتجاههم بشواهد تاريخية ، وسلوكية ، ويدعمون آراءهم بنصوص دينية ، يبدو التصادم بين منطوقها ، وبين متطلبات الحضارة واضحاً جليا ، ويرتكزون في معارضتهم لتطبيق الشريعة الإسلامية علي ممارسات فردية في التاريخ الإسلامي ، وعلي آراء بعض علماء المسلمين في أحداث إقليمية ، أو مواقف شخصية ، وظروف ألمت بها معطيات تلك العصور ، فوجهتها وجهة لا تسمح بتطبيقها في عصر آخر ، أو مكان مختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذي ظهر فيه ذلك التوجه الفكري ، والتطبيق القانوني .

لا نريد الخوض في بيان حقيقة العلمانية ، وتوضيح تربتها التي نبتت فيها ، واختلاف هذه التربة عن ظروف المجتمع الإسلامي ، حتي لا ندخل في مسارات تخرجنا عن منهجنا الذي رسمناه لبيان مظاهر التخلف في عالمنا الإسلامي ، وكيفية علاجه.

كذلك لا نميل إلي مناقشة رأي من يذهب إلي أن للعلمانية جانبا إيجابيا بالنسبة إلي نشر الإسلام في أقطار الكرة الأرضية ، إذ إنها رفعت الحواجز التي وضعتها الكنيسة أمام دعاة الإسلام ، يوم أن كان الحكم ثيوقراطيا ، إذ بعد تحول هذه الأقطار إلي العلمانية أتيحت الفرصة لدعاة الإسلام أن يتجولوا في العالم العلماني دون أن يتعرض لهم أحد ، أو يمنعهم من توصيل كلمة الله إلي آذان الجماهير .

لا نريد الدخول في هذا كله ، لأننا نركز علي بيان الأسلوب الصحيح في مجال إبداء الآراء ومناقشتها ، مهما كان مضمونها ، لأنه الطريق الوحيد والأمثل الذي يوصلنا إلي بناء حضارة تتخذ مكانها بين حضارات الأمم والشعوب.

فإذا كان لدى العلمانيين نية صادقة في البحث عن أحسن النظم التي تهيئ للشعوب إمكانية بناء حضارة ، فينبغي أن يتعاملوا مع الأطراف المعارضة بأسلوب حضاري ، حيث لا يكون هناك مكان للغمز واللمز ، أو للهجوم المستتر للمشاعر الروحية والإنسانية والوطنية ، مع الالتزام بما تعارف عليه المتحضرون في مجال النقاش العلمي ، من عدم اتخاذ السلوكيات السلبية لقلة من الناس دليلا تبني عليه المواقف ، كما ينبغي عدم الخلط بين نصوص الإسلام المقدسة كالقرآن الكريم ، وما ثبت صحته ثبوتا جازما من السنة ، وبين الفكر الإسلامي ، فلا ترفض النصوص لمجرد ظهور وهن في بعض مناحي فكر المسلمين .

وأظن أنه لا يوجد علماني في العالم الإسلامي يرفض القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وعليه فما عداهما يمكن رده ، حتي ولو نسب إلي أكبر علماء المسلمين ، لأن رأي أي مسلم لا يخرج عن كونه فكرا بشريا ، لا يلزم إلا بقوة حجيته وصلاحيته للتطبيق . فإذا وصلنا إلي هذا ، كان من الممكن أن نناقش النصوص بعقولنا ، مع مراعاة ظروف حياتنا المعاصرة ، لنصل إلي أسلوب سليم للتطبيق ، وإن لم نصل إلي إجماع علي رأي معين - ولن يكون ذلك أبداً ، لأنه ضد الطبيعة الإنسانية المختلفة في الأفكار والاتجاهات والمشارب والأمزجة - فليس أمامنا إلا أن نخضع لرأي الأغلبية ، مع احتفاظ الأقلية بحقها في مجال التعبير عن الآراء ، وحرية المناقشة ، ومحاولة إقناع الآخر بالحجة . . . وبالحجة فقط . . . دون اللجوء إلي استخدام القوة ، كما يفعل التيار العلماني في بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، إذ يحاول بشتى

الطرق استعداء السلطة علي التيار الإسلامي ، وذلك بتخويف أجهزة الحكم من تهديده للأمن، والتعريض بخطره علي الاستقرار السياسي والاجتماعي .

لن يكون هناك استقرار في أي مجال من مجالات الحياة إلا بتأمين حرية التعبير ... ولن يكون هناك تقدم علي جميع المستويات إلا إذا استخدمت حرية التعبير استخداماً حسنا ، بعيدا عن المزايدات والمهاترات ، وإلا إذا التزم كل بأمانة الكلمة، وحرص علي ممارسة الصراع الفكري بأسلوب حضاري ، بعيد عن الأنانية البدائية ، ومنزه عن كل ما يعوق حركة البناء ، ومسيرة التقدم الحضاري.

وفي وسط هذا الخضم الفكري - المشوب بالعنف تارة ، وبالسلبية تارة أخري - المتلاطم الأمواج ، يبدو تيار :

- معتدل في نظرته للوجود ، فلا تجذبه مغيبات العقول الوهمية ، ولا يغريه هدوء السلبية الحضارية ، واستكانة المسلمات الانطوائية .
- ومدرك لفلسفة ضرورة تفاعل الأفكار في المجتمعات الإنسانية ، فلا تؤثر فيه مغريات الانفراد بالرأي ، اعتماداً علي السلطة الحاكمة ، ولا ينساق وراء نزعات الغرور ، وشطحات التفرد في الساحة الفكرية ، فهو لا يطالب بمصادرة الرأي الآخر ، ولا يظهر منه ما يوحي بازدرائه أو عدم الاهتمام به .
- ملتزم بالجدية في فهم معطيات العصر ، واستيعاب مقومات الحياة ، فلا ينزلق وراء الشعارات الجوفاء إرضاءً للجماهير ، ولا يغوص في أوهام المهاترات سعيا وراء مجد زائف ، ليس فيه للمجتمع شروي نقير ، ولا يحقق منفعة مؤثرة في دفع مسيرة التقدم.
- ويؤمن بأن عملية التغيير والتطور لا تؤتي ثمارها إلا في جو الاستقرار والأمن ، وفي إطار طمأنينة الفرد وسلامة الهيكل الاجتماعي ، فالعنف يعوق حركة التقدم - هكذا يري أصحاب هذا التيار - بما يسدله علي

المناخ العام من إرهاب فكري ، ويقذف في قلوب الأفراد خوفاً ورعبا ، لا يستطيع الإنسان معه أن ينتج في أي مجال من المجالات ، لأن الإرهاب والخوف قتل براعم الإبداع عنده ، وأعجزه عن القيام بأي نشاط حيوي في مجال التنمية ، فهو عاجز فكريا ، ومشتت روحيا وضعيف جسمانيا ، ومن كان هذا شأنه ، فهيهات أن يحصل علي موضع قدم علي طريق التقدم والرقي .

كرس أصحاب هذا التيار جهودهم لتصحيح المفاهيم الإسلامية ، وذلك بتنقيتها مما علق بها من شوائب ، ترسبت في أذهان المسلمين عبر عصور التخلف والانحطاط ، فالإسلام في نظر هؤلاء ليس عبادة فقط ، ولكنه عبادة وعمل ، بل إن العمل في مجال الإنتاج لا يقل ثوابه عند الله عن العبادة ، فهو - أي العمل - عبادة ، وخاصة في هذه المرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي ، حيث يحتاج المسلمون إلي جهد كل فرد للخروج من وطأة التخلف التي أثقلت كاهلهم ، فأبعدتهم عن مجال المنافسة الحضارية ، ودفعت بهم إلي أتون استغلال القوي الحضارية في العالم :

- تستنزف مواردهم .
- وتستهلك طاقاتهم .

سواء كان ذلك عن طريق الحصول علي موادهم الخام بأبخس الأسعار ، أو عن طريق استرداد ما حصلوا عليه من ثمن لهذه المواد ، حيث استطاعت هذه القوي احتكار أسواق المسلمين لترويج بضائعها ، ومن ثم تحويل مدخراتهم إلي بنوكها .

لن يستطيع المسلمون التغلب علي هذا التخلف إلا إذا تغيرت مفاهيمهم لتعاليم الإسلام ، بحيث يعود منهج المسلمين إلي سيرته الأولي :

- قوة دفع في مجال البناء والتقدم ، متحرراً من السلبية التي لم يعرفها المجتمع الإسلامي إلا في عصور الانحطاط.

- وعاملاً من عوامل الازدهار والنمو في المجال الاقتصادي ، متجاوزاً مرحلة الهروب والانطواء ، التي سادت في المجتمع ، نتيجة عدم فهم مبدأ «طاعة الله» فهماً صحيحا ، وذلك بحصرها في مجال التسبيح والتكبير فقط.
- ومنفتحاً علي الطاقات الإنسانية البناءة ، دون خوف يحرم المسلمين من الإطلاع علي ما ينتجه العقل البشري في مجال العلوم المختلفة .
- مرنا في فهم معطيات العصر ، ووضعها في ثوب إسلامي ، يتناغم مع المعزوفة الدولية ، وينسجم مع إيقاع مسيرة الأمم والشعوب ، فلا تعيق مسيرته قوالب جامدة ، ولا تقيده مفاهيم محلية ، أو آراء شخصية ، فهو - أي هذا المنهج - لا يرتبط إلا بنصوص القرآن الكريم والأحاديث المجمع علي صحتها. وما عدا ذلك فالمسلم حر في التأويل والتوجيه - طبقا لمفاهيم اللغة - في إطار متطلبات العصر ، ومقتضيات الحتمية الحضارية .
- وحضاريا في التعامل مع الرأي الآخر ، فلا يسفه المخالفين ، بل يحترمهم ، ويوقرهم ما داموا يعبرون عن وجهة نظرهم بالكلمة ، ويناقشون قضايا الأمة بالحجة والدليل .
- لا يدعو إلي العنف وسط نغمات المحبة والسلام .
- ولا يتطرف في تصوره لما يجب أن يكون عليه المجتمع ، لأنه يتعامل مع بشر ، لهم متطلباتهم الحياتية ، ورغباتهم في متطلبات الحياة وملذاتها.

هذه هي المعالم الرئيسية لهذا التيار المعتدل ، وذلك هو أسلوبه في فهم سلام وتطبيقه ، وفي تعامله مع الآخر ، سواء كان ذلك علي مستوي الحوار لمناقشة في مدرجات البحث والدراسة ، أو كان في مجال الدعوة إلي تطبيق سلام وسط الجماهير ، ومع المشاركين في اتخاذ القرارات المصيرية في مسات الدولة التشريعية والتنفيذية .

غير أن من الواضح أن أضواء هذا التيار - رغم اعتداله وتحضره - ما زالت خافتة ، فأصداء دعوته لم تصل إلي الجماهير ، وبالتالي لم تأخذ حظها علي خريطة وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتلفزة !!

ربما يرجع ذلك إلي طبيعة منهجه في التركيز علي الموضوعية ، وإبراز الجوانب الحضارية في التشريع الإسلامي ، وتلك أمور لا يفهمها عامة الناس، مما يفقده التأييد الجماهيري ، الذي لا يحظي به إلا من خلط العواطف بالمبادئ ومال إلي إثارة المشاعر ، بدلاً من مخاطبة العقول والأفئدة .

أو يكون ذلك التعتيم راجعاً إلي سياسة رسمتها قوي مؤثرة في تكوين الرأي العام وتوجيهه حسب ما تريد ، فخططت لحصار هذا التيار ، وعدم إعطائه فرصة الظهور ، حتي لا يؤثر علي الشباب تأثيراً لا يستطيع مقاومته ، لأن سلاحها الوحيد في وقف الزحف الإسلامي ، هو اتهام من يعمل في الحقل الإسلامي بالتطرف وهؤلاء معتدلون ،

- أو بالعنف

وهؤلاء لا يدعون إلي العنف

- أو بالجمود والتحجر

وهؤلاء كسروا هذا الطوق الذي وضع في أعناق دعاة الإسلام منذ النهضة الحديثة ،

- أو بالرجوع إلي العصور الأولي .

ومنهج هؤلاء يتطلع إلي المستقبل ، ويناشد المسلمين بأن يأخذوا بأسباب التقدم والرقي .

- أو بالدعوة إلي العزلة الدولية .

ومنهج هؤلاء يدعو المسلمين إلي مد يد التعاون والتعامل مع جميع دول

العالم ، طبقا للنظام العالمي الذي أقرته الأمم المتحدة .

فإذا لم يكن لدي تلك القوي ما يخول لها - باسم الشرعية الدولية - محاربة هذا التيار ، فليس أمامها سوي التعتيم علي أخباره ، وعدم إتاحة الفرصة له ، ليعرض منهجه علي جماهير المسلمين ، ويبلغه لكافة شعوب الكرة الأرضية .

ومن الواضح أيضا أن مصلحة هذه القوي التي تعرقل حركة التيار المعتدل ، وتعوق مسيرته ، وتمنع انتشاره عن طريق السكتة الدماغية ، تلاقت مع مصالح قوي عالمية ، فعملا معاً علي دفن هذا التيار حيا ، فوسائل الإعلام تتجاهله ، بل وتبرز التيارات الأخري المتطرفة ، أو الرافضة للحياة المعاصرة وتصورها علي أنها هي المعبرة عن الإسلام ، لتشوش صورة هذا الدين في المجتمعات غير الإسلامية ، فالمواطن - بشكل عام - في البلاد غير الإسلامية لا يعرف عن الإسلام شيئا سوى أنه دين يدعو أتباعه إلي ممارسة الإرهاب وقتل كل من لا يدين به ، وإشاعة الفوضي في المجتمع ، وعدم الأخذ بأساليب الحضارة الحديثة ، مفضلا عليها الحياة البدائية ، بما فيها من سلبية ، وخضوع للأساطير [و]الخرافات الشعبية .

ولهذا فهو - أي المواطن في البلاد غير الإسلامية - لا يفكر علي الإطلاق [ف]ي هذا الدين ، بل ينفر منه ، ويبتعد عنه . وتلك هي الغاية التي تريد القوي [الم]عادية للإسلام تحقيقها .

لن يستطيع المسلمون التخلص مما هم فيه من التخلف الذي أورثهم الشعور [بال]دونية إلا بمساندة أصحاب التيار الإسلامي المعتدل ، والوقوف وراءهم حتي [ي]غلبوا علي هذه العقبات ، ويتخطوا كل المعوقات التي يلقيها أعداء الإسلام [أم]ام الزحف الإسلامي الواعي والمستنير . . .

كيف يتحقق ذلك ، وأصحاب الاتجاهات الإسلامية الأخري يشتركون مع

المناوئين للإسلام في محاربة التيار المعتدل ؟

كيف تصل أفكار هذا التيار إلي الجماهير المحاصرة بوسائل إعلام ، يديرها أناس غافلون عن إدراك معالمه ، أو مغيبون عنه بواسطة قوي داخلية ، وإيحاءات خارجية ، سيطرت علي أفكارهم ، فصرفتهم بعيداً عن التوجه إلي هذه العناصر الإيجابية ، فضلاً عن تسليط الأضواء عليها ؟

هيهات أن يجد المعتدلون لهم نصيراً إلا قوة أفكارهم ، ووضوح منهجهم ، وعملهم الدؤوب في سبيل الوصول إلي غايتهم ، التي لن يصلوا إليها إلا إذا تعاونوا مع بعضهم ... ليس في تنظيم سياسي .. أو تجمع حزبي ... فهذا لا يتفق مع مبادئهم ، بل بالتواصل الفكري ، والعمل الاجتماعي ، وذلك بعقد ندوات فكرية ، وإلقاء محاضرات ثقافية ، وإسهام كل فرد اقتنع بهذا المفهوم في نشره بين المتصلين به ، سواء في قاعات الدرس أو أماكن العمل ، أو علي المستوي الجماهيري ، عن طريق الاتصال الشخصي ، أو الجماعي بواسطة المؤسسات العلمية والثقافية ، والجمعيات الخيرية .. وغيرها .. حتي يمكن خلق رأي عام :

- يجبر الجماعات الدينية المتطرفة علي سلوك منهج الاعتدال ،
- ويشكل قوة ضغط علي السلطة لتغيير سياسة القمع والبطش ، فترضي – عن اقتناع – بالحوار والمناقشة ، بديلاً عن التعقب والملاحقة .
- ويكون سياجا منيعا ضد التيارات الإعلامية المتدفقة عبر الأثير من كل أنحاء العالم ، فينقيها من الشوائب ، بحيث لا يقبل منها إلا ما يري المتلقي فيه صلاحاً ومنفعة ، وينبذ كل ما يحتوي من آثار قد تؤثر علي مسيرته في جميع مجالات الحياة ، سواء كانت روحية أو مادية .

وبذلك ترفع الغشاوة عن قنوات الإعلام المحلية ، فيعود إليها رشدها ، وتمتلك زمام أمرها ، فتسير في خط موضوعي ، بعيد عن تجاهل الإيجابيات في مسيرة الفكر الإسلامي ، ومترفعة عن تضخيم السلبيات بصورة تشوة الحركة

الفكرية في المجتمع ، أي أنها تكون انعكاساً صادقاً لما يجري في المجتمع ، مع إعطاء الإيجابيات حقها في الأضواء ، كي تنمو يوماً بعد يوم ، لتحاصر السلبيات في أضيق الحدود .

٦- مفهوم الدعوة في العصر الحديث :

منذ أن أمر رسول الله ﷺ بالجهر بالدعوة في قوله تعالى :

﴿ قـم فأنـذر ﴾ (١).

والمواجهة مستمرة بين المسلمين من جانب ، وغير المسلمين من المعارضين والمناوئين ومن يدور في فلكهم - سواء كان سلباً أو إيجاباً - من جانب آخر ، ولم يأخذ الصراع شكلا معينا ثابتا ، أو التزم أسلوبا واحدا ، بل أخذ عبر عصور التاريخ الإسلامي أشكالاً عدة ، وتلون بأساليب مختلفة ، طبقاً للاختلاف والتباين في جميع المجالات التي تخوضها الدعوة ، سواء كان ذلك زماناً أو مكانا ، أو كان راجعاً إلي حالة المسلمين في القوة أو الضعف ، أو متعلقاً بالظروف التي يمر بها من توجه إليه الدعوة : ثقافياً وعقائدياً ، أو اجتماعياً ونفسياً ، بالإضافة إلي ما لديهم من نفوذ وقوة في مجالات الحياة المختلفة ، فقد آثر النبي ﷺ في المرحلة الأولي الالتزام بمنهج توجيه الخطاب في أهل مكة ، مبيناً لهم فساد ما هم عليه من عقائد وعبادات ، طالبا منهم:

- ترك ما هم عليه من شرك ووثينة .
- والإيمان بما جاء به من عند الله .

فلم يلجأ في هذه المرحلة إلي استخدام العنف مع الذين اعتدوا عليه وآذوه، الالتجاء إلي القوة ليؤمن سير الدعوة ، بل اقتصر علي مقاومة الحجة ، وتوجيه العقول إلي التفكير فيما يعرض عليهم ، ليتبينوا صدق رسالته ، ويؤمنوا به رسولا ، ويعبدوا الله وحده لا شريك له ، لأن الظروف لم تكن

---

(١) المدثر : ٢.

ملائمة لاستخدام القوة . . . حتي وإن كانت للرد علي الإهانة التي تكرر توجيهها إلي النبي ومن آمن معه ، أو منعاً لوقوع تعذيب القلة التي آمنت به في مكة .

وعندما انتقل المسلمون إلي يثرب (المدينة المنورة) أضيف إلي المنهج العام - وهو عرض الدعوة بالقول والموعظة الحسنة - عنصر جديد ، ألا وهو استخدام القوة في الدفاع عن حقوق المسلمين ، والنزول إلي ساحة الصراع المسلح لتأكيد الذات الإسلامية واختراق حاجز حصار المناوئين للدعوة ، لتصل كلمة الله إلي المستضعفين في الأرض . وفي هذه المرحلة ، تكون المجتمع الإسلامي علي أساس تعاليم الإسلام ، فكان نموذجا للمجتمع المنشود ، الذي نادي به كثير من الأنبياء والمصلحين عبر التاريخ البشري ، وأصبح - أي المجتمع - عنصراً مؤثراً في مجال الدعوة إلي الله . ذلك أنه حرك الشعوب الأخري للدخول في الإسلام ، ليتحقق لهم ما في المجتمع الإسلامي من : عدالة ، وحرية ، ومساواة .

وبذلك أصبحت عناصر الدعوة ثلاث :

١- الجانب الفكري والثقافي .

٢- الواقع العملي في المجتمع الإسلامي .

٣- القوة التي تدافع عن المسلمين ، وتحافظ علي المجتمع ، وتؤمن حياة أفراده .

ذلك أن الجانب الفكري بما يحتويه من مبادئ ربانية ، كرس فريق من العلماء والمفكرين جهودهم لشرحها وبيانها لغير المسلمين بما لهم من قوة الحجة، أو قدرة علي الإقناع ، وثقافة واسعة دعمت مواقفهم في المحاورات والمجادلات مع الشعوب التي اتصلوا بها عقب خروجهم من الجزيرة العربية حاملين لواء الدعوة إلي الله . . .

كان هذا الجانب يمثل النشاط الإسلامي (أو بالتعبير الحديث : الجهود

الإعلامية) في توضيح مبادئ الإسلام وشرح أهدافه وتعاليمه للناس .

ويدعمه في ذلك ويقويه واقع المجتمع الإسلامي ، حيث يطبق المسلمون أحكام الإسلام ، فتبدو صورة حياتهم نموذجاً إعلامياً ، يقنع الآخرين بصلاحية هذه المبادئ ، لقيام حياة إنسانية ، يسودها الأمن والأمان ، ويرفرف في جنباتها أجنحة الاستقرار والإطمئنان ، فيعتنقون الإسلام ، ويعلنونه دنيا لهم ، يدافعون عنه بكل ما لديهم من وسائل مادية . . . وقدرات فكرية ومعنوية .

ويمثل الضلع الثالث للمثلث : القوة الضاربة ، التي تحمي الكلمة ، فلا يعترضها من يسكتها ، أو يحول بينها وبين الوصول إلي المجتمعات الإنسانية ، وتصون المجتمع فلا يهدده المخربون وأعداء الإنسانية .

وفي هذا الجو : حرية التعبير والمناقشة في مجتمع يسعد بأمنه ورخائه ، وقوة تدافع عن الحرية ، وتصون الكلمة ، قامت نهضة في جميع مجالات الحياة في المجتمع الإسلامي :

- في المجال الفكري النظري ، حيث كثرت المدارس ، وتنوعت اختصاصاتها ، وتفرعت اهتماماتها بين فقه وحديث وتفسير ، وبين فلسفة ومنطق وأخلاق وعلم كلام ، بالإضافة إلي تأصيل المناهج في دراسة التاريخ والعلوم الإنسانية .
- وفي آفاق العلوم التجريبية ، حث غاص المسلمون بأبحاثهم في آفاق الكون والطبيعة ، يبحثون عن أسرارها وأسباب ظواهرها ، ويضيفون إلي ما سبقهم من نظريات وأبحاث إضافات جوهرية ، وتعديلات فيما احتاج إلي تعديل من مسلمات السابقين ، واكتشافات كانت المنطلق الأساسي لبناء حضارة إسلامية ، عبدت الطريق لقيام الحضارة المعاصرة ، كما بحثوا في الإنسان فاكتشفوا ما بداخله من أجهزة الحياة المختلفة : من دموية ، وعصبية ، ونفسية ، فتمكنوا من وضع كثير من الممارسات

الطبية في مجالات التمريض والرعاية الصحية .

- وترتب علي تفوقهم في هذه المجالات ظهور نهضة زراعية وصناعية لـ يسبق لها مثيل ، مما مكن للأمة الإسلامية بفضل تفوقها أيضا في الإدار والتوجيه أن تحتل مكاناً سامياً بين أمم التاريخ البشري ، التي تنسب إليه حضارات ، فسجل التاريخ صفحات باسمها في سجل الحضارا الإنسانية .

ومما لا شك فيه أن النهضة الإسلامية في مجالات العلوم المختلفة وازدهار الصناعة والزراعة في الدولة الإسلامية كانت من أبلغ صور الدعو إلي الله ، فإذا أردنا التعرف علي ملامح منهج الدعوة إلي الله ، وإذا أرد التعرف علي ملامح منهج الدعوة في العصر الحديث ، فيجب علينا أن نأخ بعين الاعتبار هذه العناصر التي ذكرناها :

١- نهضة ثقافية تقوم علي أساس حرية التعبير ، وانطلاق الفكر ، بحيث لا تصادر فكرة ، مهما كان مضمونها ، وإنما تناقش بالحجة ، وتقاوم - إن كانت مرفوضة - بالمجادلة التي يلتزم فيها المتحاورون بأدب المناظرة .
ولا ينبغي لأحد أن يستخدم سلاح القوة والبطش ، ما دام الطرف الآخر ملتزماً بسلاح الكلمة ، وقوة المنطق ، كما لا يجوز لأحد أن يرمي الآخر بالكفر ، بسبب مخالفته لرأي مجتهد . . . حتي وإن كان رأي جمهور الفقهاء، وعامة علماء المسلمين .

٢- اهتمام بالجانب العلمي في مجالات البحوث التجريبية والتطبيقية ، وآفاق التكنولوجيا بجميع مساراتها ودروبها حتي تتبوأ المجتمعات الإسلامية مكاناً مرموقاً في مجال الإبداع والابتكار في عالم الإلكترونيات المعاصرة ، لأن تخلف المسلمين في هذا المجال ينعكس سلبيا علي الدعوة الإسلامية ، إذ يلعب التفوق الحضاري دوراً بارزاً ومؤثراً في مساندة الصراع الفكري الدائر بين الشعوب والتجمعات

العرقية، كما لا يغيب عن ساحة المنافسة بين المحاور الاقتصادية ، فهو عنصر فعال - وإن لم يكن ظاهرا علي السطح - في تحريك وتوجيه التبادل التجاري ، ونقل الخبرات في مجالات التنمية ، والكشف عن المعلومات الاستراتيجية - أو السماح بنقلها ، أو غض الطرف عن تسريبها بطرق مختلفة - التي تقوم عليها أسس الحضارة الحديثة ، إذ يعتبر التقدم في المجال المادي في عالم اليوم قوة تساند النظام الفكري ، وبالتالي فهو سند متين للدعوة ، وركيزة صلبة تشد من أزر الداعية في إقناع المخالفين ، وتوجيه المترددين ، ذلك أن الإنسان المعاصر يهتم بالتقدم الحضاري ، ويستهويه الازدهار الاقتصادي ، فإذا واكب هذا دعوة متناغمة مع هذا الازدهار ، بل تدعو إليه ، وتحث الناس علي الأخذ بأسبابه ، بالإضافة إلي جانب روحي ، يخفف من ضغوط الحياة المعاصرة ، ويشبع عواطف الإنسان وأحاسيسه ، فإن مما لا شك فيه أنها - أي الدعوة - تثير انتباهه ، وتوجه فكره وأحاسيسه إلي الإنصات إلي دعاتها، والتفكير في مبادئها . . . . وغالباً ما ينتهي به الأمر إلي اعتناقها، والدفاع عنها .

أما إذا كان أصحاب الدعوة ضعافا ، لا يملكون من أسباب الحضارة شروي نقير ، ولا يهتمون بها أدني اهتمام ، ويعيشون عالة علي غيرهم في استهلاك المنتجات ، مسببين لهم - أي للمنتجين - الأزمات تلو الأزمات، فهيهات أن يفكر في دعوتهم أحد . . . فضلاً عن أنهم قد يحاربونها بحجة أنهم لا يريدون لأنفسهم هذا المصير الذي آل إليه أصحاب هذه الدعوة .

٣- مواكبة العصر في المجال السياسي :لم يعد ممكنا في العصر الحديث أن تعزل دولة نفسها ، وتعيش بعيدة عن الأحداث الدولية ، مغيبة عن ساحة اتخاذ القرارات التي تحدد هوية النظام العالمي . . . بل أصبح مستحيلا قطع

وسائل الاتصال الدبلوماسي مع الأنظمة الدولية التي تتحكم اليوم في تكييف العلاقات بين أمم الكرة الأرضية .

ومن هنا يصبح الانكفاء علي الذات ، وإهمال ما يجري علي الساحا الدولية من قبيل الانتحار البطئ إن لم يتسبب في كارثة تزلزل كيان الأمة، وتهدم بنيانها رأسا علي عقب في فترة قصيرة ، لا تتجاوز لحظات "بمقياس العمر الزمني للدولة" ، ولهذا ينبغي أن تتناول استراتيجة المسلمين مد الجسور مع الدول الأخري ، وتكييف علاقاتهم مع الأمم علي أساس المنظومة الدولية التي اتفق عليها سكان الأرض ، بحيث لا يبدون ، أو يتهمون بأنهم شواذ ، أو خارجون علي النظام الدولي ، أو ثائرون يهددون الاستقرار الدولي ، أو مخربون يصدرون الإرهاب لزعزعة السلام العالمي.

ويجب أن تتغير منطلقات التعامل مع غير المسلمين عما كانت عليه في العصور السابقة ، إذ لم يعد مستساغا في العصر الحديث استخدام مصطلحات أدت دورها في القديم ولم يعد لها أي فائدة في مجال الدعوة اليوم مثل :

« دار الكفر ، ودار الحرب »

وغيرهما من المصطلحات التي تجلب علي المسلمين اليوم - إن استخدموها في تكييف علاقاتهم مع الآخرين - مصاعب جمة ، ومشاكل لا يقدرون علي مواجهتها في ظل الظروف الدولية المعاصرة .

فإذا سمعنا من بعض التيارات المعاصرة ترديد مثل هذه الكلمات فينبغي أن نواجههم بحقيقة صدى هذا الترديد في المجتمع الدولي ، ونبين لهم ضرورة الإقلاع عن هذا المنهج ، وإلا تكأكأت الأمم علينا كما تتكأكأ الأكلة علي قصعتها .

فمن مقتضيات العصر أن نعزف مع العازفين في المنظومة الدولية ، ولا نتسبب في إحداث نغمات النشاز ، ما دام ذلك لا يخرجنا عن التمسك بمبادئ

الإسلام الأصلية ، وأظن أن معظم التوجهات الدولية - إن لم تكن كلها - التي تنادى بها أمم الأرض لا تخرج عن روح الإسلام وتعاليمه : فالسلام والأمن ، وحقوق الإنسان ، والشرعية الدولية ... وغيرها ، مبادى يدعو الإسلام إليها ، بل يطلب من المسلمين أن يقفوا بجوار من ينادى بها ... حتي ولو كان علي دين يخالف الإسلام ، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ، لو دعي به في الإسلام لأجبت ، تحالفوا علي أن يردوا الفضول إلي أهلها » .

كما روي عنه أنه قال :

« ولقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ، ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعي به في الإسلام لأجبت » (١).

---

(١) يروي ابن كثير عن هذا الحلف أنه كان أكرم حلف وأشرفه في العرب :

وقد كان ذلك الحلف ، والنبي عليه السلام قد بلغ العشرين ، وقد أجمع الرواة علي ذلك وقالوا إنه كان بعد حرب الفجار، كان حلف الفضول في شهر ذي القعدة ، وكان الفجار قبله بأربعة أشهر ، أي أن الفجار كان في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم ، ولم يذكروا أن حرب الفجار كان والحج قائم ، وشهر رجب ليس من أشهر الحج وإن كان من الأشهر الحرم .

وقالوا إن سببه أن رجلا من زبيدة قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدي عليه بني عبد الدار ، ومخزوماً وجمحاً وغيرهم ، فلما رأي الرجل أن حقه ضائع ، وبدا القعود فيمن استعان بهم علا جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فنادي بأعلي صوته منشداً :

يا آل فهـــر المـــظلـوم بضاعتـــه ... ببطن مكة نائي الدر والنفـــر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... ياللرجال وبين الحجر والحجر

إن الحـرام لمـن تمـت كرامـتـــه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فالرجل يثير فيهم الحمية بذكر الظلم الواقع عليه ، وأنه واقع ببطن أرض الله ، وبجوار البيت المقدس الذي لا تخطف فيه الأموال ولا تضيع الحقوق ، وأن الظلم بين =

فتصريح الرسول ﷺ بأنه مستعد للاستجابة لمثل هذا الحلف الذي تحال
عليه كفار مكة ، يدل علي أنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا مع من يقف
وجه الظالم ، وينصر المظلوم في حلف ، مهما كانت عقيدته ، وعلي
مستوي كان مذهبه في حياته ونظامه الاجتماعي ، وبناءً عليه ، فالدو
الإسلامية المعاصرة ملتزمة - إسلاميا - بالمعاهدات الدولية ، والمواثيق ال
تصدرها المؤسسات والمنظمات العالمية ، كلما كان ذلك دعما للأمن والاستقر
في العالم ، ومؤدياً لحفظ الحقوق للأفراد والشعوب ، فيجب عليها أ
تتقاعس عن المشاركة في مواجهة الظالمين والمعتدين ، ولا تصم آذانها ع

= الحجر ، وبين الحجر الأسود الذي يقدسونه ، ويشير إلي أنه محرم للعمرة .

كان أول من أستجاب لنداء الله ، وتقدم لإغاثته بنو عبد المطلب، فقام في ذلك الزب
بن عبد المطلب ، وقال ما لهذا مترك ، أي لا يصح أن يترك.

اجتمعت بطون بني هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان
وكان جوادا ، فصنع لهم طعاما ، وكان ذلك في ذي القعدة ، الشهر الحرام .

تعاقدوا وتحالفوا ليكونن علي الظالم ، حتي يؤدي إليه حقه ، ما بل بحر صو
ومارسا حراء وثبير مكانهما وعلي التأسي في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف
حلف الفضول.

وقيل انما سمي حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم علي مثل هذا من نص
المظلوم علي ظلمه ، وكان الداعي إليه ثلاثة من أشرافهم ، اسم كل واحد منهم فضل.
وهم : فضل بن فضالة ، والفضل بن الحارث ، والفضل بن وداعة ، ذكره ابن قتيبة ،
وقيل سمي حلف الفضول لأن أصحابه دخلوا في فضل من الأمر التزموا به ، وقيل :
إن الفضول معناها : الحقوق ، وتحالفوا علي ردها .

ولقد نفذ ذلك الحلف فور انعقاده ، فقد مشي المتعاهدون إلي العاص بن وائل ،
فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه ، وقد قال الزبير بن عبد المطلب معتزا به :

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا	ألا يقيـم ببطن مكـة ظالم
أمر عليـه تعاقـدوا وتوافقـوا	فالجار والمعتر فيهـم سالم

ولقد سر النبي ﷺ لشهوده ذلك الحلف ، وأعلن : أنه ينفذه في الإسلام .

نداءات المقهورين والمستغلين ، إذ فرض الإسلام علي المسلمين - حكاماً وشعوبا - مد يد العون لكل محتاج ، ومساعدة الضعفاء علي استرداد حقوقهم.

كما أنه يجب علي الدولة الإسلامية ألا تقف موقفاً سلبيا إزاء مواجهة المشكلات البيئية : كالتلوث بجميع أنواعه ، وانتشار المخدرات ، وتدمير آثار الحضارات الإنسانية ، أياً كان موطنها ، وعلي أي مذهب كان أصحابها ، لأن الإسلام يحرم كل عمل يؤدي إلي الهدم والتخريب ، بل يدعو الناس جميعا إلي إعمار الأرض ، حتي يستخلفهم فيها ، قال تعالي :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [١].

فقد ذهب بعض العلماء إلي أن شرط الاستخلاف في الأرض : عمارتها ، وذلك بالعمل الدائب لزراعتها واستنبات خيراتها ، والجهد المستمر في تصنيع ما يستخرج منها ، والمحافظة علي كل ما يزينها .

هذه هي الركائز الأساسية للدولة الإسلامية :

- نهضة ثقافية تقوم علي أساس حرية التعبير والانفتاح علي الثقافات العالمية.
- الاهتمام بالجانب العلمي التجريبي .
- مواكبة العصر في المجال السياسي .
- تعاون علي الخير مع جميع الدول علي اختلاف عقائدها ومذاهبها.

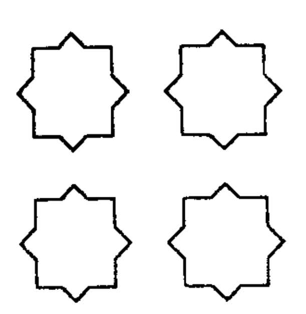
فمن حرف - أو أنكر - جانبا من هذه الأساسيات في بناء الدولة في العصر

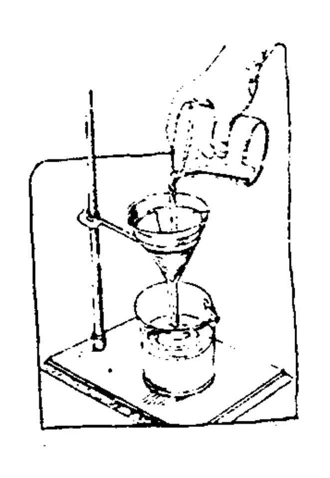
---

(١) النور : ٥٥ .

الحاضر ، لجهله بمبادئ الإسلام وتعاليمه ، أو لتدعيم سلطانه وجبروته ، فه
مناهض للدعوة الإسلامية . . . حتي وإن ادعي أنه يتحدث باسم الإسلام
. . بل إن ادعاءه هذا يعتبر سهماً قاتلاً في جبين الدعوة ، لا يضاهيه - في أل
للمسلمين وتدميره للواجهة الحضارية للإسلام ، وبالتالي تنفير الناس مر
الإسلام - كل ما في جعبة أعداء الإسلام جميعهم من سهام ونبال .

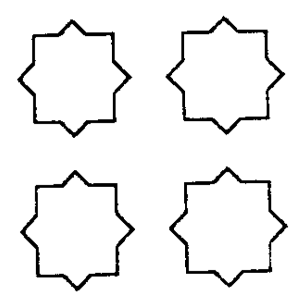
* * *





الفصل الرابع

حرية الفكر في الإسلام



- ١ -

الدين أساس التربية

تمر مجتمعاتنا الإسلامية بمرحلة من أدق المراحل في تاريخها المعاصر ، إذ تعتصرها المشاكل العامة والخاصة ، وتحيط بها العديد من الأزمات السياسية والإجتماعية ، وتعتصرها التيارات الفكرية المتعددة المصادر ، والمختلفة المناهج والأشكال ، وفي وسط هذا الخضم من الأعباء الثقيلة ظهرت ردود فعل عديدة، بعضها سلبي ، والآخر استغلالي ، وبين هذا وذاك أناس صفت نفوسهم ، وصدقت نواياهم ، فحاولوا دفع عجلة المجتمع إلي الطريق الصحيح ، ولكن محاولتهم لم توصلهم إلي الهدف المنشود ، إذ ذهبت جهودهم هباءً بسبب حقد الحاقدين وكيدهم ، ومكاء المنتفعين وضجيجهم ، وغفلة الغافلين وإهمالهم ، ونتج عن هذا إصابتهم بنوع من الإحباط جعلهم أقرب إلي السلبية ، منهم إلي الإسهام في حل مشاكل مجتمعاتهم ، لكن أصالة الفكر ، وصدق العزيمة ، وفوق هذا إيمانهم الصادق بوجوب العمل لخدمة المجتمع حال بينهم وبين الركون إلي السلبية المميتة ، ومنعهم من الانزواء بعيدا عن هذه المشاكل ، أو الانطواء علي النفس إيثاراً للسلامة من رذاذ المنافقين القاتل.

ولكن ، كيف السبيل إلي العمل ؟ وهم لا يجدون مكاناً ينطلقون منه إلي العمل الجاد ، فقد سد المنتفعون المنافذ ، وأقام أصحاب الهوى المتاريس علي الطرق ، وافتعلوا ضوضاء طغت علي الساحة ، فلم يسمع الناس سوى ضجيج أجوف ، وأصداء لا هدف لها سوى صمم الآذان ، وإصابة الأعصاب بالتوتر .

لا سبيل سوي العمل الجاد في كل الاتجاهات ، والاستمرار في بيان المشاكل

للناس ، وتبصيرهم بما يجب عمله حتي نتغلب علي حالة اليأس الضاربة أطنابها في نفوسهم ، ونزيل الحاجز النفسي بيننا وبين الانطلاق إلي حياة أفضل ، لا أقول : حياة تختفي منها المشاكل كلية ، فذلك هدف مستحيل التحقيق في الحياة الإنسانية ، بل حياة يغلب عليها طابع الإرتياح النفسي ، والاعتداد بالذات ، والثقة في قدرة الأمة علي مواجهة المشاكل وتخطى العقبات التي تفرضها طبيعة الحياة وسط مجتمعات متعددة في مناهج حياتها ، ومتنافرة في عقائدها ومبادئها .

فلن نستطيع التغلب علي مشاكلنا إلا إذا تحقق الشعور بالإنتماء الوطني لدي أبناء الأمة ، وبالعزم الأكيد علي بذل أقصي ما يمكن من جهد للخروج من عنق الزجاجة الذي وضعتنا فيه الظروف التي مرت بها الأمة في السنوات الماضية ، لكن هذين العنصرين لا يبرزان إلي الوجود بمجرد بعض من الخطب الرنانة وسط الجماهير أو عبر وسائل الإعلام المتنوعة ، ولن يظهرا في سلوك المواطنين وتصرفاتهم عن طريق القوانين واللوائح ، ولن يكونا من ملامح المجتمع المميزة له بين المجتمعات بواسطة التلقين والتكرار الممل الذي لا روح فيه ولا حياة ، ولا طعم له ولا لون ولا رائحة ، وإنما يكون ذلك بالتربية والتعليم الذي يستهدف غرس القيم الفاضلة ، والأخلاق الحسنة في نفس الإنسان وروحه ، كي يتعود تلقائياً علي السلوك الحسن ، ويميل بالفطرة إلي أن يتعامل مع بني وطنه علي أساس الأخلاق الكريمة والشعور بوحدة الذات بين أفراد المجتمع .

ولن يتحقق هذا إلا إذا قامت التربية علي أساس ديني ، لأنه :

أولا : لا زال الإنسان - مهما بلغت درجة تقدمه ورقيه ، وتظاهره بالتحرر من القيود الدينية القديمة - واقعا تحت تأثير التعاليم الدينية ، فلم يتحرر كلية من الخضوع في الأوقات الحرجة لما يصدر من رجال الدين من توجيهات ، أو من الميل في كثير من قراراته إلي ما تمليه عليه عاطفته الدينية ، والدليل علي

ذلك أن الأحزاب المسيحية لم تفقد السيطرة كلية علي شعور الناخبين في الدول المتقدمة التي أعلنت « رسميا » أنها فصلت الدين عن السياسة ، كذلك ما زال كثير من شباب الغرب – الذي يصوره لنا بعض كتابنا بالتحلل والتنكر للمسائل الدينية – متعصبا لدينه أكثر مما نتصور ، وقد تأكدت من هذا بنفسي عندما كنت أدرس في جامعة برلين الغربية في العقد السابع من هذا القرن ، إذ اعتادت المؤسسات الطلابية أن ترسل بعض أعضائها إلي إفريقيا في رحلات « علمية » فكانوا يعودون بأفلام ووثائق يقومون بعرضها وشرحها في ندوات ثقافية فكان من الملفت للنظر أن مسألة انتشار الإسلام في إفريقيا وتأثير هذا الانتشار علي نشاط المبشرين في هذه القارة كانت المحور الرئيسي لكل من يتحدث في هذه الندوات عن مشاهداته في إفريقيا ، سواء كان المتحدث طالباً في الطب أم في الهندسة ، أو كان دارسا للعلوم النظرية التي لها علاقة بالفكر البشري النظري.

لفتت نظري هذه الظاهرة ، وتساءلت عن السبب الذي يحمل طالب الهندسة أو الطب علي أن يترك البحث في هذه القارة عما يساعده في مجال دراسته فيتحدث عن الدين الذي هو بعيد عن الحقل الذي سوف يتخصص فيه !!! إنه العاطفة الدينية التي لا تفارق الإنسان ، حتي وإن أعلن أنه نحي الدين جانبا ، ليتركز النشاط الإنساني في المجال الدنيوي بعيداً عن التأثير الديني ، فالتأثير الديني موجود دائما ، ولذلك ينبغي أن نبدأ إصلاح الفرد من هذا الجانب لأنه سيساعدنا كثيرا في الوصول سريعا ، وبأسلوب لا سلبية فيه إلي الهدف المنشود.

ثانياً : لما كان الشرق هو مهبط الوحي ، وموطن الأديان السماوية فقد ارتبط الإنسان في هذه المنطقة بالدين ارتباطاً وثيقا ، ولهذا فإن أي حركة إصلاحية لا يكون الدين أساسها فمصيرها الفشل ، حتي وإن أحرزت بعض الانتشار في أول عهدها ، فشعوبنا لا تعرف غير الدين لغة للتخاطب ، ولا ترضي بنظام يتنافي مع الدين قانوناً لها ، ولا تسمع لمتحدث لا يعلن من أول

الأمر أنه يتخذ الدين سبيله في الإصلاح ، وطريقه في التربية والتعليم.

ولكن أي أسلوب ينبغي أن يتبع في سبيل إصلاح الأمة علي أساس ديني ؟ أهو العنف الذي تمارسه بعض الجماعات الدينية . لقلب أنظمة الحكم ليحل محلها النظام الإسلامي ؟.

أم هو الطريقة التقليدية التي ينهجها معظم الوعاظ وعلماء الدعوة من التخويف من النار وعذابها ، والتغني بالجنة ونعيمها تاركين المجتمع ومشاكله؟.

أم هناك طريق آخر أكثر صلاحية ، وأقرب إلي روح الإسلام وتعاليمه !!

* * *

- ٢ -

تحديد المفاهيم أولا

تقاس حيوية الأمة ، وفاعليتها في مسيرة التقدم ، بمقدار ما يطرح في ساحتها الفكرية من آراء ، وما يثار في أروقتها العلمية والأدبية من مشكلات تتعلق بتنظيم حياة أبنائها في جميع مجالات الحياة ؛ فكلما تعددت الآراء ، وتنوعت الرؤى ، دب النشاط في جنبات الأمة ، وتيقظت أفئدتها في جميع المستويات، بما يصير حركتها بناءً وتشييداً في كل اتجاهات الحياة ، سواء كانت إنتاجا لمستلزمات الحياة ، أو إبداعاً فكرياً وفنياً ، يمد أفرادها بالطاقات اللازمة لاستمرارية التقدم والازدهار .

ولا يتحقق ذلك إلا إذا صارت حرية التعبير من المقدسات التي لا ينبغي لأحد أن يمسها ، ولا يجوز لأي جهة ـ مهما كانت ـ أن تقيدها ، أو تصادر أي مظهر من مظاهرها .... وإلا وئدت أفكار الملهمين ، وإشراقات المبدعين، فتتعرقل مسيرتنا ، وتتبدد جهودنا وسط ظلامات لا أول لها ولا آخر ، فتُهمَّش حياتنا ، ونغيب من ساحة الصراع العالمي ، وساعتئذ لن يرحمنا الأقوياء ، فالساحة الدولية لا مكان فيها لضعيف أو مسكين ، ولا يعرف المتصارعون فيها غير لغة القوة، ولا يحترمون إلا القادر علي الإسهام في منظومة المسيرة العالمية .

كيف يتحقق ذلك ، والساحة مليئة بالاتهامات التي تصل إلي حد تكفير صاحب الرأي ... وفي بعض الأحيان تصفيته جسديا ، أو علي أقل التقدير محاصرته ، حتي يموت أدبيا ومعنويا ؟ .

لقد كثر المتحدثون باسم الدين حتي اختلط الحابل بالنابل ، فصرنا لا نعرف من هو المتخصص في المسائل الدينية ... حتي نستفتيه فيما يحيط بنا من

مشكلات ، إذ نزل إلي الساحة أنصاف العلماء ، والمزايدون ، وأصحاب المصالح الشخصية ، ومن ركب موجة الصراع بدافع العاطفة ، وليس لديه ما يؤهله للإدلاء برأي ذي قيمة علمية . . . كذلك اختلف المتخصصون (رجال الدين) في تفسيرهم ، وتأويلهم للنصوص ، فتعددت رؤاهم في التعامل مع مقتضيات العصر ، وتنوعت ردود فعلهم إزاء المستحدثات بين الرفض التام ، والقبول المشروط بما يمكن عمليا ، وما يستحيل تحقيقه في الظروف الدولية المتشابكة .

ولو التزم المتخصصون بقواعد السلف في مجال اختلاف الآراء ، حيث سادت بينهم هذه المقولة : « رأيي صحيح يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب » ، لهان الأمر ، ولكنهم تراشقوا بألفاظ ، تتنافي مع قواعد البحث العلمي ، وفي الوقت نفسه هي بعيدة عن روح الدين . . . حتي وصل الأمر ببعضهم إلي رمى من يخالفه بالزندقة .

فماذا يفعل العامة إزاء هذا الوضع ؟.

كيف يمارسون نشاطهم في المجتمع وهم مطمئنون إلي سلامة سلوكهم وتعاملهم مع المؤسسات المختلفة من وجهة النظر الدينية ؟.

كيف يتعاملون مع « ما » ، و« من » يحيط بهم دون أن يقعوا في خطأ يمس العقيدة ؟

لا يمثل هذا الوضع مشكلة للأميين ، ومن في حكمهم ، لأنهم مفطورون علي التدين . . مدفوعون إلي تأدية الشعائر الدينية بدافع العاطفة ، فلا يستطيع أحد أن يثنيهم عن هذا الواجب ، ولا يمكن لأي فكر - مهما كانت حجته وأدلته - أن يشككهم فيما يعتقدون ، أو يهز تصوراتهم الدينية ، أو يبعدهم عن المرويات المتعلقة بالعقيدة ، حتي ولو كانت هذه المرويات منحرفة عن حقائق الدين ، وبعيدة عن ركائز العقيدة من جراء ما علق بها عبر الزمان ، وما

أضاف إليها الإنسان من خرافات وأساطير .

غير أننا لا نستطيع الجزم بأنهم خارج الساحة ، لأن لهم تأثيراً فيما يجري من نوع آخر ، ألا وهو أنهم يمثلون ثقلاً كبيراً في ثبات العقيدة ، وسيطرتها علي جميع أنشطة الحياة في المجتمع ، . . . حتي في أروقة الثقافة والفكر ، وفي قاعات البحث العلمي ، سواء كان تجريبيا بحتا ، أو نظرياً إبداعياً وفلسفيا، لأن الباحثين يخشون غضب الجماهير ، ولذا فهم يحرصون علي الظهور بصورة المتدينين ، ويركزون في كثير من الأحيان علي تلوين أبحاثهم بلون ديني . . . حتي وإن كان في ذلك بعداً عن روح العلم ، ومنافياً لقوانين البحث ، وفي بعض الأحيان يكون ذلك مجرد تظاهر - لا مفهوم له - بأن البحث يجري في إطار ديني.

ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه يعرقل مسيرة التطور ، كما أنه يسيئ إلي الإسلام ، لأن إقحام الدين في كل أمر من أمور الحياة بهذه الصورة ، يُحمِّل النصوص ما لا تحتمل ، وينثر غباراً كثيفا حول تعاليم الإسلام بحيث يحجب الرؤية عن غير المسلمين فلا يرون الإسلام إلا بمنظار المعرقل لانطلاقة الفكر ، والمقيد لحرية البحث ، ومن ثم فلا تقدم في ظله ، ولا إبداع مع الالتزام به .

كيف ، وقد أبدع الفكر في عصر صدر الإسلام ، وازدهر البحث في جميع المجالات ، فشيد المسلمون حضارة شاملة ، حيث ظهرت الإختراعات ، ووجدت الابتكارات طريقها بين كل المستويات ؟ .

حقاً، كان ذلك ، لأن عنصر إثارة الدهماء ، واستعداء العامة علي المخالفين في الرأي لم يكن بهذه الصورة التي نراها اليوم ، إذ يحرص كثير من المفكرين في مجتمعنا المعاصر علي إرضاء العامة ، خوفا من أن يلجأ معارضوهم في الرأي إلي تهييج الجماهير ضدهم ، إذ يكفي لالحاق الأذي به، أو قصف قلمه، وقطع لسانه طوعاً أو كرهاً . . . حتي ولو أدي إلي تصفيته حسديا ، أن يشيع أحدهم بأن فلانا خارج عن الدين ، أو علماني . . . أو . . . أو غير

ذلك من الألفاظ التي ألبسوها رداء الخروج عن الدين .

فتوجيه التهم للمعارضين في الفكر أصبحت جاهزة ، ويرددها كل من سمعها ، أو قرأها ، دون سؤال عن الحيثيات ، ومن غير تفكير فيما أرساه الإسلام من قواعد للتفريق بين المسلم والكافر .

من هو المسلم ؟ ومن هو الكافر ؟ ، وما هي الأعمال التي يكفر مرتكبها ؟ أسئلة ينبغي علي المثقفين والمفكرين أن يحددوا إجاباتها تحديداً دقيقاً ، حتي لا يختلط الأمر في الساحة الفكرية ، فيضل أناس ، ويتطرف آخرون .

المسلم : من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأقام الصلاة ، وأدي الزكاة ، وصام رمضان ، وحج البيت عند الاستطاعة.

والمؤمن : من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما جاء في قوله تعالي :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾.

والكافر : من يعلن كفره بواحد مما سبق ، يقول تعالي :

﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدا ﴾ .

وعليه فمن التزم بأركان الإسلام الخمسة ، ولم يصرح بإنكار ما جاء في الآيتين السابقتين ، لم يجز لأحد أن يتهمه بالكفر ، فقد وردت كلمة الكفر والكافرين في القرآن الكريم في آيات عدة ، وكلها تدور حول : من لم يؤمن بالله ، أو كذب رسولاً من رسله ، أو لم يتبع ما أنزل علي رسله من : عبادات وتشريعات ، أو أنكر البعث والحساب ، أو الجنة والنار . . . حتي وإن كان مخالفاً في الرأي لما ذهب إليه جمهور المسلمين ، ما دام لا يترتب علي

مخالفته إنكار أصل من أصول الدين كأن ينكر القرآن ، أو الحديث الصحيح ، أو لا يعترف بفرضية الصلاة أو الزكاة أو الحج . . . وما عدا ذلك فلا يجوز تكفيره ، لأن هناك أسساً في الدين تفصل بين الكافر والمسلم ، وهذه الأسس هي : الإيمان بألفاظ القرآن الكريم ، فمن أنكر حرفاً فقد كفر ، والإيمان بحديث رسول الله ، ومعني ذلك أنه إذا ثبت عن طريق القطع أن الحديث قد قاله رسول الله ﷺ ، وأنكره جماعة لمجرد الإنكار ، فهذا كفر ، لأنه تكذيب لرسول الله ﷺ ، أما إذا أنكرت طائفة - أو فرد - الحديث بحجة أنه لم يصح إثبات أن الرسول قد قاله ، فلا تكون كافرة بهذا الإنكار ، لأنها لم تكذب رسول الله ﷺ ، بل كذبت الرواة ، ولهذا لا يصح وصف من ينكر الحديث لعدم صحة سنده بأنه كافر ، كذلك لا يكون كافراً من اعترف بنص القرآن الكريم وخالف جمهور العلماء في الفهم أو التفسير ، ولذلك يقول الأصوليون عن القرآن : « قطعي النص ظني الدلالة » ، أي أن نصه مقطوع به ، فمن أنكر حرفا منه فقد كفر ، وظني الدلالة ، أي أن دلالته تختلف من شخص لآخر ، ومن هنا جاء الاختلاف في التفسير والتأويل.

وعليه فكل طائفة داخلة في دائرة الإيمان ، ما لم تخرج خروجا واضحا عن الإسلام ، ولا يكون هذا إلا بإنكار نص صحيح ، أو الحكم بإبطال شئ معلوم من الدين بالضرورة ، كفرضية الصلوات الخمس ، ووجوب الجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من الأحكام المجمع عليها بالتواتر ، وما عدا ذلك فالكل مسلم ، وإن اختلفت آراؤهم في التفسير .

هل يجوز ـ بناءً علي هذا ـ أن يدلي كل بدلوه في مجال الدين ، ويقبل قوله ، ما دام لم ينكر أصلا من أصول الدين التي بيناها ؟ .

* * *

- ٣ -

حدود حرية الفكر في المجتمع الإسلامي

نشرت مجلة « ديرشبيجل » الألمانية الواسعة الإنتشار في عددها الصادر بتاريخ ٢٠/١٢/١٩٩٣م تحقيقا مطولا عن أحد القسس الكاثوليك في ألمانيا، ويدعي « أويجن دريفرمان » ، ويدور التحقيق حول معارضة هذا القسيس لبعض أفكار الكنيسة الكاثوليكية ، كما يهاجم بعض تعاليم البابا ، وذلك في كتاب نشره في ٧٢٠ صفحة ، تحت عنوان « حرية العقيدة » مما حمل الكنيسة علي إصدار قرار بإبعاده عن العمل في الكنائس ، فاضطر إلي نشر أفكاره عن طريق الندوات والمحاضرات في الجامعات والتجمعات المهنية ووسائل الإعلام.

ويعتبر قرار الإبعاد سمة عامة في كل الأديان ، التي تتكون في ظلها طبقة تشرف - بل وتحتكر - علي تفسير النصوص المقدسة ، واستنتاج الأحكام منها، وتحديد ما يكون حلالا للناس فيمارسوه ، وتوضيح ما تحرمه الشريعة فيجتنبوه ، أي أنهم يحللون ويحرمون حسب ما يتراءي لهم من فهمهم للنصوص المقدسة ، وقد يصل الأمر إلي أقصي مداه فيحللون ويحرمون ، اعتماداً علي نصوص مشكوك في صحة نسبتها إلي من أوحي إليه ، أو مرويات نسبت إلي علماء وفقهاء ليسوا معصومين من الخطأ ، أو رؤي تكونت عبر الأجيال من تراكمات روافد ، اختلط فيها الصحيح بالسقيم ، وامترج في مجراها الوحي بآراء البشر وعاداتهم وتقاليدهم ، مما عكر صفو العقيدة ونقاءها، فران عليها ما غير معالمها بالخرافات والأساطير ، وشوه صورتها بأفكار بشرية ، تراكمت عليها عبر الأجيال.

فإذا ظهر من تدفعه غيرته الدينية إلي البحث عن منابع العقيدة الصافية ، وقاده بحثه إلي رفض مسلمات لبعدها عن روح العقيدة . وتناقضها مع منطوق النصوص الصحيحة ، انبرت هذه الطائفة [رجال الدين] ملوحة بالوعيد والثبور ، فإن لم يرتدع أصدروا قراراً بطرده من ساحتهم ، والحكم عليه بالكفر ، أو علي أقل تقدير بالضلال والفسق. وصفحات التاريخ مليئة بأخبار الصدام بين رجال الدين وبين المفكرين الذين أبدوا اعتراضهم علي بعض ما يرونه مخالفا لروح العقيدة ، أو مناقضا لمفهوم النصوص الصحيحة ، ذلك الصدام الذي كانت نهايته في عصور ما قبل النهضة الإعدام بصور شتى ، أو التعذيب والسجن حتي يهلك ذلك الذي تجرأ علي « قداسة » رجال الدين ، فبين خطأهم في تفسير النصوص المقدسة ، أو أبدي رأيا مخالفا لتوجهاتهم.

فهل يشترك الإسلام مع الأديان الأخري في مثل هذه الظاهرة ؟

تتشعب هذه الظاهرة إلي ثلاثة فروع :

١- النصوص المقدسة .

٢- ما يتمتع به المتخصصون في الدراسات الإسلامية [رجال الدين] في مجال التشريع ، ومدى إمكاناتهم في تحديد الحلال والحرام .

٣- الفكر الديني وما علق به من ثقافات الشعوب.

وتنحصر نصوص الإسلام المقدسة في القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، علي اختلاف بين العلماء في معرفة وتحديد الصحيح من الضعيف منها ، غير أن من المجمع عليه عند المسلمين أن نص القرآن الكريم لا يختلف عليه اثنان ، وإلا صار من يشك في صحة حرف واحد منه كافراً بالإسلام ، تجرى عليه أحكام غير المسلمين إن لم يسبق له اعتناق الإسلام ، أما المسلم الذي ينكر حرفاً من القرآن الكريم فتجري عليه أحكام المرتد ، هذا إن جهر بذلك ، فإن كان شكه أو إنكاره بينه وبين نفسه ، فلم يجهر به ، فأمره إلي الله ، لأنه لا

يقدر علي معرفة ما في الصدور إلا الله سبحانه وتعالي .

أما فهم النصوص القرآنية ، فقد اختلف فيها العلماء اختلافاً كبيرا ، وذلك نظراً لاختلاف الرؤي ، وتباين الثقافات ، وتعدد المذاهب ، سواء كان ذلك من منطلق البحث عن الأحكام الفقهية التي تتعلق بالعبادات ، أو كان توضيحا لأسس العقيدة وما يتعلق بها من تفصيلات وتفريعات ، أو كان بياناً لمبادئ وتنظيمات تقوم عليها حياة المجتمع الإسلامي ، وعليه فلا يجوز لأحد الحكم علي آخر بالكفر ؛ لأنه خالفه في فهم النص ، أو اتجه اتجاهاً مناقضاً له في التفسير والتأويل ، لأنه لو كان ذلك جائزاً لأصبح الجميع كفارا ، لأن كل واحد سيرمي الآخر بالكفر ، مع عدم إمكانية ترجيح واحد علي الآخر . ومن هنا لا يصح اتهام « مجتهد » بالكفر ، حتي وإن خالف رأيه ما ذهب إليه جمهور المسلمين ، ما دام اجتهاده قائماً علي أسس سليمة لغويا ومنهجيا.

هذا فيما يتعلق بنصوص القرآن الكريم ، أما السنة فينبغي التفريق بين السنة القولية والسنة العملية ، فالعملية ، كهيئة الصلاة وما يشبهها في وضوحها وتكرارها لا خلاف فيها ، أما ما عدا ذلك فقد كثر فيها الخلاف : ما بين منكر لها لعدم إمكانية التأكد من صدق رواتها ، مما يشكك في صحة نسبتها إلي الرسول ﷺ ، وبين من يري أنها كلها واجبة الاتباع ، وخاصة ما تأكد علماء الحديث - طبقاً للشروط التي وضعوها - من صحة روايتها عن رسول الله ﷺ.

غير أن بعضهم - وخاصة في العصر الحديث - يري أن صحة الرواية لا تكفي ، بل يجب أن يضم إليها صحة المتن ، بحيث لا يتناقض مع العقل ، ولا يتنافر مع مصلحة مؤكدة ، أو يصطدم مع مسلمات بديهية ، لا مجال للشك فيها ، كدوران الأرض وغيره من المعلومات الكونية ، التي تأكدت صحتها بوسائل شتي ، وإزاء هذا الوضع نستطيع أن نقول : إن من ينكر حديثاً - لشكه في صحة نسبه إلي الرسول ﷺ - لا يصير بذلك الإنكار كافرا،

لأن ذلك من الأمور المختلف فيها ، وخاصة أن الرسول ﷺ لم يوجه اهتمام المسلمين ولم يأمرهم بتدوين الحديث .

وننتقل إلي العنصر الثاني : وهو مدى ما يتمتع به المتخصصون في الدراسات الإسلامية [رجال الدين] في مجال التشريع ومدى إمكاناتهم في تحديد الحلال والحرام !!

لا يتميز رجال الدين في الإسلام عن غيرهم إلا بمقدار إخلاصهم في العقيدة ، واجتهادهم في مجال خدمة المسلمين ، عن طريق تعليمهم أحكام الدين ، وإرشادهم إلي ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، أي أن درجة التقوي والصلاح التي تدفعهم إلي إتقان عملهم ، هي التي ترفع مكانتهم عند الله ـ وليس انتسابهم ـ مجرد الانتساب ـ إلي هذه الطائفة ، هو الذي يرفع مكانتهم، ويفضلهم علي الآخرين ، كما أنهم ليسوا هم وحدهم الذين ترفع درجاتهم لو أخلصوا العمل ، إذ ينال كل مجتهد هذا الجزاء ، حتي وإن كان تخصصه بعيدا عن مجاز الدين فكل من أخلص في عمله ، واجتهد فيه ، وأتقنه ، فإن الله يكرمه ، ويجازيه علي ما بذل من جهد وما تحمل من تعب في سبيل خدمة أمته ، ومن هنا فإن رجال الدين لا يختلفون في الإسلام عن غيرهم ، ويملي عليهم ما يريد إبلاغه للناس ، كما يدعي رجال الدين في كثير من الأديان الأخري ، فهم بشر ، صلتهم بالله كصلة أي إنسان آخر ، تخضع في قربها وبعدها عن رحمة الله لما يقوم به المرء من أعمال ، وتتعلق بمدى الإخلاص له في العبادة .

وعليه ، فلا يجوز لأحد أن يدعي أنه هو وحده - بحكم انتمائه إلي هذه الطائفة - المختص بالبحث في مجال النصوص المقدسة ، إذ يجوز لكل مسلم أن يدلي بدلوه في هذا المجال ، ما دام قادراً عليه ، بثقافته ، وعلمه ، وإلمامه بالنصوص المقدسة ، وتمكنه من تفاصيل المناهج اللازمة للبحث ، وإن لم يكن من الوجهة الرسمية فرداً من هذه الطائفة ، لأن البحث في مجال العقيدة ليس

حكراً علي طائفة دون غيرها ، ولا يعتبر « تابو » (أي محرما) علي غير رجال الدين ، لمجرد أنهم لا ينتسبون « مدرسيا » إلي هذه الطائفة ، بل هو متاح لكل قادر علي الالتزام بقواعده ، ومراعاة أحكامه .

ولما كان هذا هو وضع « رجال الدين » في الإسلام ، فهم لا يملكون حق التشريع ، كما يملك ذلك نظراؤهم في الأديان الأخري ، بل البحث واستنباط الأحكام من النصوص المقدسة فقط ، كما أنه لا يصح لهم الادعاء بأنهم يؤثرون في غفران خطيئة المخطئين ، سواء كان ذلك بكتابة صك غفران كما في الأديان الأخري ، أو بالإيحاء بأن « بركاتهم » تحل علي من يرضون عنه ، فيغفر الله له ، كما يشيع ذلك بين عامة الناس ، لأنهم لا يملكون لأنفسهم من الله نفعاً ولا ضراً إلا من شاء الله لهم ، فكيف يدعون ذلك لغيرهم .

وبناء عليه ، فليس لهم حق مصادرة رأي ، أو فرض وصاية علي أفكار المسلمين وإبداعاتهم ، فإن رأوا فيها مخالفة لما يفهمونه من النصوص المقدسة ، أو خروجاً علي ما ارتآه جمهور الفقهاء ، فليس لهم إلا مناقشته وبيان خطئه بالحجة والدليل ، وذلك ما كان عليه علماء هذه الأمة في العصور الأولي للدولة الإسلامية ، فقد كان المجتمع يموج بآراء شتي ، وأفكار متنافرة ، ظهر فيه النصيون ، والعقلانيون ، وأصحاب الرأي وأصحاب الحديث ، والقدرية والجبرية ، والمجسمة والمشبهة ، ومن غالي في نفي الصفات إمعانا في التوحيد، بل كان هناك زنادقة ، ومسرفون في الجهر بالمنكرات والموبقات ، لدرجة أن كثيرا من الموروثات الأدبية سجلت ذلك في صفحات تاريخ هذه الأمة ، فأصبح جزءاً من تراثها ، ومع ذلك لم يكن في وسط هذه الأمواج التي تتلاطم بشتي الأفكار والصور من ادعي لنفسه حق مصادرتها ، أو الحجر عليها ، بل هب العلماء والفقهاء للدفاع عن الدين ، والزود عن حياضه بالكلمة والحجة والدليل فكانت حلقات النقاش حول ما يجد من آراء منتشرة في طول البلاد وعرضها ، تقرعَ الحجة بالحجة ، وتتصارع الأدلة حول المفاهيم

والإستنتاجات ، فما قوي منها ، ثبت واستقر ، وما كان ضعيفا تهاوي واندثر، وبذلك نهضت الأمة ، وشيدت حضارة لازلنا نتغني بها دون أن ندرك أسباب نشأتها ، ونعي أهم ما قامت عليه ، وترعرت في ظله ، ألا وهو حرية الرأي ، فطفقنا نحجر علي هذا ، ونقيد ذاك ، ونكتم أنفاس حرية الكلمة في كل مجال بحجج شتي ، ومعاذير واهية ، حتي وصل الأمر إلي تصفية من يتجرأ فيفكر بصوت عال بالقتل ، أو علي أقل تقدير بعزله اجتماعياً ومحاصرته اقتصادياً حتي يموت كمداً .

هل يعني هذا أن نترك المرجفين وأعداء الدين يتطاولون علي الإسلام ورسوله ، ويشككون في تعاليمه وأحكامه ؟.

لا ، غير أننا ينبغي أن نفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي ، فالإسلام : هو القرآن الكريم ، والسنة : العملية ، أما الفكر الإسلامي ، فهو ما أنتجه المسلمون حول هذين المصدرين ، فبالنسبة للإسلام لا يجوز لمسلم أن ينكر شيئا من نصوصه ، أو يشكك فيها ، لأنها وحي من الله ، لا ينبغي أن يقترب منها عقل مسلم بالنقد أو التجريح ، ويلحق بهذا شخصية الرسول ﷺ ، فلا يجوز لمسلم أن يقترب منها بما يحط من شأنها أو يهينها ، وإلا كان كافراً ، فذلك أمر مجمع عليه ، فضلا عن كونه جوهر الإسلام ، فإذا تسرب الشك إليه ، أو اهتزت صورته في نفوس المسلمين لم يبق للإسلام قيمة ، ولا مبدأ يجمع المسلمين حوله ، ولهذا ينبغي الاتفاق علي أن الحرية التي ننادي بها مقيدة بعدم المساس بهذين الصرحين : النصوص المقدسة « القران الكريم والسنة العملية » وشخصية الرسول ﷺ ، وما عدا ذلك فلا يجوز الحكم علي من قادته حرية الفكر إلي مخالفة رأي جمهور المسلمين بأنه كافر ، ما دام لم يتطاول علي شخصية الرسول ﷺ ، أو يعتدي علي قداسة النصوص المقدسة.

❊ ❊ ❊

- ٤ -

لا قداسة في الإسلام لرأى أو جماعة

الخوف من المجهول غريزة في الإنسان ، لا يستطيع أحد التخلص منه ، مهما ارتقي عقله ، وتطورت حياته ، فارتكز علي أسس علمية تمكنه من معرفة ما سيحدث في المستقبل القريب والبعيد ، لأن عدم الإطمئنان ، والخوف مما يمكن أن يتمخض عنه المستقبل لازم من لوازم التفكير الإنساني ، ومن هنا لجأ بغريزته إلي قوة اعتقد أن لها السيطرة علي مجريات الأمور في الكون كله ، فتقرب إليها مستعطفا ، وراجياً أن تحميه من غوائل الدهر ونكبات الزمان ، ولما كانت قواعد التقرب والزلفي إلي هذه القوة مجهولة بالنسبة له ، فقد تخبط في بداية الأمر فيما ينبغي عليه القيام به إزاء هذه القوة ، كي يسترضيها لتحميه ، واختلط عليه الأمر أيضاً في تصوره لهذه القوة ، الأمر الذي نتج عنه وجود صور شتي لها في المجتمعات الإنسانية ، وممارسات عديدة ومتباينة للتقرب إليها، غير أن الحرص الشديد من جانب الإنسان علي إرضاء هذه القوة ، والبحث الدءوب عن كيفية إرضائها ونيل عطفها ورعايتها تسبب في تكوين مجموعة من الناس ، ادعت أن لها صلة بها ، وأنها القادرة علي بيان ما تحبه وترضي عنه ، وما تبغضه وترفضه من سلوكيات البشر ، فانقاد الناس لهم ، وخضعوا لأوامرهم ، ينفذون رغباتهم ، ويستدرون عطفهم فرفعوهم بذلك إلي مرتبة القداسة ، بل لقد وصل تقديسهم في بعض المجتمعات إلي مرتبة الألوهية.

كونت هذه المجموعة التي تزعم أن لها صلة بالقوة المسيطرة علي مجريات الأمور في الكون طبقة مميزة عن غيرها من طبقات المجتمع ، فادعت أن قربها من القوة العليا وضعها فوق طبقات المجتمع كلها ، وأسبغ عليها سمات وأوصافا لا ترقي إليها أىٌ من الطبقات الأخري ، حتي وإن كان لديها من القوة

العسكرية والإقتصادية ما يمكنها من السيطرة علي كل مناحي الحياة ، وإخضاع كل انشطة الحياة لرغباتهم وأهدافهم ، لأن خوفهم من القوة العليا يدفعهم إلي تقديم إمكاناتهم المادية « اقتصادية كانت أو عسكرية » لخدمة الطبقة المقدسة [رجال الدين] حتي لا تغضب منهم هذه القوة فتهلكهم وما يملكون ، أو تتحرك ضدهم قوي الشعب بدافع العاطفة الدينية فتتزلزل الأرض من تحت أقدامهم فيفقدون ما يملكون من السيطرة والنفوذ ، ولذا فهم يتقربون إلي رجال الدين حماية لأنفسهم وأموالهم ، ودعما لنفوذهم وسلطانهم علي بقية طبقات المجتمع.

ومن جانب آخر يبذل رجال الدين قصارى جهدهم في إضفاء الغموض علي التعاليم الدينية ، كي يظل زمام الأمور في أيديهم ، فيخضع الجميع لهم ، ويسخر الشعب كله ما يملك لخدمتهم ، فهم وسطاء الله في الأرض ، والمالكون لرحمته وغفرانه ، والعارفون بالأسرار التي تحمي الأتباع من غوائل الدهر ونكبات الزمان ، إليهم يتوجه المذنبون فيغفرون لهم وبهم يتوسل الحائرون فيوجهونهم إلي ما ينبغي أن يعلموه ، ومنهم يتلقي الناس تفسير ما يجهلون ، وتوضيح ما يحيط بهم من ظواهر الكون وعجائب الزمان ، وتحديد علاقتهم بكل ما حولهم ، سواء كان جماداً أو حيواناً ، نباتا أو هواماً تسير علي الأرض ، أو تطير في الجو ، أو تسبح في الأنهار والمحيطات ، حتي أصبح رجال الدين هم محور الحياة كلها ، ومدار النشاط الإنساني ، لدرجة أنهم حبسوه في دائرتهم ، وقيدوه بآرائهم ومفاهيمهم ، فاستخدموا سلاح الخوف من القوة العليا التي يمثلونها في تخويف الناس وإرهابهم حتي لا يخرجوا عن طاعتهم ، فمن تجرأ وخالفهم جردوه من كل ما يملك ، وحاصروه بما عندهم من فرمانات «إلهية» ، وحشدوا كل قوى المجتمع في مواجهته حتي يفني صبرا ، أو ينفذوا فيه حكم الإعدام بالوسيلة التي يتيحها العصر لهم.

فما موقف الإسلام من هذه الظاهرة ؟

هل تساعد مبادئه علي تكوين مثل هذه الطبقة « طبقة رجال الدين » في المجتمع ؟. وعلي فرض أنها تكونت في المجتمع الإسلامي ،

فهل يعطيها الإسلام الحق في الوصاية علي عقائد الناس ، أو التدخل في شئونهم الدنيوية ؟ وما مدي هذا التدخل ؟.

أيصل إلي حد إصدار أحكام بالكفر علي من يخالفهم في الرأي ، أو حرمانه من رحمة الله ، كما كان يحدث في عصور ما قبل الإسلام ؟.

أكد القرآن الكريم في آيات كثيرة علي بشرية الرسل عليهم السلام ، كما بين الرسول ﷺ في مواقف عدة أنه واحد من بني الإنسان ، ولد من أب وأم كما يولدون ، وتربى بينهم كغيره من فتيان قريش ، ومارس النشاط الإنساني كما يمارسونه :

لعب مع الصبية ، ومشي في الأسواق ، فباع واشتري ، وعمل أجيرا في رعي الغنم وفي الرحلات التجارية ، وتزوج وأنجب ، فكان زوجاً ورب بيت ، وأباً يسعي علي رزق أولاده كغيره من الناس ، ويبذل في رعايتهم والعناية بهم مثل ما يبذله أقرانه ، يقول تعالي :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾[1].

ويقول علي لسان المعارضين له :

﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ [2].

بل إنه كان من الأفراد العاديين، فلم يكن من علية القوم، لدرجة أن القوم استنكروا ألا يُنزَّل القرآن علي رجل عظيم ، له مكانة اجتماعية ، وسلطة تمكنه من فرض آرائه علي الناس ، يقول تعالي حكاية عن استنكار القوم عدم نزول القرآن علي أحد الرجال العظام ذوي المهابة والمكانة في المجتمع :

---

(١) سورة الكهف : ١١٠.   (٢) سورة المؤمنون : ٣٣.

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم﴾(١).

وإذا تتبعنا سيرته بين أصحابه ، رأينا أنه لم يميز نفسه عنهم ، فلم يتعال عليهم بحجة اتصاله بالملأ الأعلي كما كان يفعل الكهان ورجال الدين ، ولم يتصرف معهم كرئيس بين مرءوسين شأن أصحاب الرئاسة بين أقوامهم ، ولم يرفع مجلسه بينهم ، كما يتصدر المتحدثون والمعلمون ندوات الرأي ومجالس التعليم ، . . . . حتي كان القادم علي المجلس يسأل ، أيكم محمد ؟ لأنه لم يكن يري ما يميزه عن أصحابه في المجلس ، أو في المعاملة ، وما ذاك إلا لأنه أراد أن يقضي علي ما ترسب في ذاكرة المجتمعات الإنسانية من تقديس لرجال الدين ، ورفع لطبقتهم فوق الطبقات الاجتماعية ، فأرسي بمعاملته لأصحابه ، وسيرته بين المتعاملين معه مبادئ عامة للبشرية كلها ، ألا وهي :

١- لا فضل لأحد علي آخر إلا بالتقوي . . . حتي ولو كان متصلا اتصالا مباشرا بالوحي ، سواء بتلقيه ، أو برعايته ونشره بين الناس ، فلا يُميَّز الإنسان علي أخيه بلون البشرة ، ولا بالنسب والدم ، ولا برفع الإنسان بين قوم بمال أو منصب . . . حتي ولو كانت رئاسة الدولة ، كما قال أول خليفة لرسول الله ﷺ ، بعد مبايعته لتولي مسئولية أكبر دولة في عصره : « إني وليت عليكم ولست بخيركم » .

٢- ليس هناك وساطة بين العابد والمعبود ، يقول تعالي :

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (١).

فلا يجوز لأحد - إسلاميا - أن يدعي لنفسه حق الوساطة بين العبد وربه ، فالكل أمام الله سواء ، لا يحظي أحد بالقرب منه إلا بعمله وتقواه ، ولا يرضي الله عن أحد فيغفر له ويرفعه إلي الدرجات العليا إلا بصفاء قلبه ونقاء سريرته ، وطاعته لله بأداء الفرائض المكتوبة ،

---

(١) الزخرف الآية : ٣١.

والعمل في مجال تعمير الأرض ومعاملة الناس بالحسني ، يقول تعالي :
﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة** ﴾ (٢).

ويقول : ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم علي القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسني ، وفضل الله المجاهدين علي القاعدين أجراً عظيماً** ﴾ (٣).

ويقول :
﴿ **ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾(٤).

٣- لا كهنوتية في الإسلام ، فتعاليمه واضحة لا غموض فيها ، إذ هي لا تحتاج إلي من يدعي احتكار تفسيرها وتوضيحها للناس ، فمن يدعي أن تفسير آيات الله حق له وحده - كما يدعي رجال الدين في الأديان الأخري - فدعوته مرفوضة ، ومن يحرم علي مسلم الاجتهاد لاستنباط أحكام الله ، بحجة أنه ليس من « رجال الدين » فليس لتحريمه سند شرعي ، لأن الإسلام طلب من كل مسلم أن يفكر في آيات الله دون وساطة أحد ، فما دام مؤهلا فكريا وثقافيا للبحث والاستنباط ، فلا يجوز لأحد أن يصدر « فرماناً » بمنعه ، بحجة عدم انتسابه مدرسياً إلي المتخصصين في الدراسات الإسلامية ، بل يصحح له خطأه ، إن أخطأ، أو غابت عنه بعض قواعد البحث والاستنباط ، أي أن مدار قبول الرأي وعدم قبوله ليس قائله ، بل صحته ، وعدم معارضته لقواعد الإسلام ومبادئه .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٢) سورة النساء : ٢٤ .
(٣) سورة النساء : ٩٥ .
(٤) سورة الأنعام : ١٣٢ .

فالبحث في نصوص القرآن الكريم ، واستنباط الأحكام منها مباح لكل قادر عليه ، بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي ، وتصنيفه المهني ، فإن ساعدته ثقافته الدينية ، وإتقانه لمنهج البحث في العلوم الإسلامية علي إنتاج علمي ، لا يتنافي مع مبادئ الإسلام ، ولا يتعارض مع تعاليمه ، ولا يترتب عليه إنكار نص من نصوص القرآن الكريم ، أو رفض شئ مما علم من الدين بالضرورة ، قُبِل قوله ، واتخذ مكانه ، في ساحة الفكر الإسلامي مع آراء من سبقوه من المفكرين المسلمين . . حتي وإن عارضته آراء أخري ، لأن هذا هو طبيعة الفكر الإسلامي عبر التاريخ ، منذ أن انتقل رسول الله ﷺ إلي الرفيق الأعلي حتي الآن ، فلم يعرف في صدر الإسلام أن مُنع أحد من الخوض في مسائل دينية، سواء كان ذلك في مجال العقيدة ، أو في مجال التشريع ، لأن فهم النصوص متاح للجميع ، فلو كان ضعيفاً علمياً امتنع هو من نفسه عن الخوض فيما لا يعرف ، فإن لم يفعل ، انبري له المفكرون ودارسو الشريعة ، وبينوا للمسلمين ضعف ما ذهب إليه من آراء ، وتهافت ما استنتجه من أحكام ، فلا يلبث أن ينزوي مع آرائه في زاوية النسيان الفكري ، ويضيع مع معتقداته في خضم الأمواج المتلاطمة في ساحة التفسير والتأويل ، فلا نجد له أثراً ولا خبرا، وتلك هي سنة الله التي بينها القرآن الكريم للناس ، ووضحها رسول الله ﷺ للمسلمين :

أ- كتاب الله مفتوح أمام الجميع ، لا يحتكر النظر فيه طائفة خاصة ، بل علي كل من يرى في نفسه القدرة علي الفهم والتفسير ، فلا يتردد بحجة أنه ليس من الطائفة المختصة ، بالنظر في ذلك ، لأن الإسلام لا يقر وجود مثل هذه الطائفة .

ب- علي الراسخين في العلم أن يوجهوا بالحجة ، ويبينوا بالدليل ، لتتصارع الآراء ، فتقرع الحجة بالحجة ، ويقام الدليل تلو الدليل . . . حتي تستقر الأفهام علي قبول الصحيح ، ونبذ السقيم ، ويقتنع كل بما

يري أنه موافق لمنطوق النصوص المقدسة ، ومتناغم مع مبادئ الإسلام وأهدافه ، دون أن يجبر أحد من يخالفه بالعنف علي قبول ما يري ، أو الإذعان لما يظن أنه الصحيح.

جـ- مراعاة حتمية التطور في المجتمعات الإنسانية ، فأفسح المجال لهذه الظاهرة ، إذ لم تكن مبادئه وتعاليمه معوقة لها ، بل ساعدت بمضمونها وصياغتها علي مواكبتها ، ذلك أنها جاءت عامة في كل ما يتغير ويتطور لتتيح للمسلمين حرية الحركة ، حتي لا يتخلفوا عن ركب الحضارة والتقدم .

وبناءً عليه ، فيجب علي المسلمين أن يراعوا متطلبات العصر ، ولا يقفوا عاجزين أمام النصوص العامة ، بسبب آراء السابقين في تفسيرها ، لأن عموميتها معلم من معالم الإعجاز في القرآن الكريم ، إذ لو كانت مفصلة ، لجاءت مواكبة لعصر دون آخر ، ومناسبة لبيئة دون أخري . . . فاختلاف الآراء في التفسير ضرورة أملتها الصياغة الربانية لنصوص الوحي ، حتي يتمكن الإنسان من الالتزام بها دون عنت ، أو مشقة ، فهو يختار منها ما يناسب بيئته، وينتقي منها - أي الآراء - ما يسمح له بممارسة متطلبات الحياة ، وبذلك يعيش عصره ، مع التمسك بدينه ، ويسير في ركب الحضارة والتقدم دون أن يفرط في عقيدته ، أو يهمل تعاليم خالقه ، وبذلك يثبت لغير المسلمين أن الإسلام يصلح لكل زمان ومكان .

فتعدد الآراء ضرورة لاستمرارية الإسلام في حياة المسلم وسط أمواج الحضارة المتقدمة من كل صوب ، واختلاف العلماء في تفسير الآيات وتأويلها، هو ينبوع حياة الإسلام في المجتمعات الإنسانية ، حتي لا يتواري أمام متطلبات العصر وعناصرها المتنوعة والمتشابكة ، فهو يضع الخيارات أمام المسلمين ، ليأخذوا منها ما يناسب عصرهم ، ويساعد علي حل مشاكلهم

- ٥ -

حتمية الحرية الفكرية في الإسلام

لو تخيلنا مسيرة التقدم والرقي طابورا مثل طابور العرض العسكري ، لرأينا أن رجال الدين في كل الأديان هم آخر المنتظمين فيه ، إن لم يفصل بينهم وبين آخر فرد في الطابور مسافة قد تقصر ، وقد تطول طبقا لشعورهم بحتمية التحرك ، وإلا فقدوا أتباعهم والملتفين حولهم واحداً بعد الآخر ، وما ذلك إلا لأنهم جمدوا علي النصوص ، والتزموا بفهم السابقين لها دون تفكير في الخلفية الثقافية لهم ، وبحث في الظروف التي عاشوا فيها ، لأن تفسير النص خاضع لاعتبارات شتى منها :

١- تكوين المفسر نفسيا وعقليا.

٢- انتماءاته الفكرية .

٣- المحيط الفكري العام الذي عاش فيه .

٤- المشاكل والملابسات التي يمر بها المجتمع .

وغيرها من العناصر التي تشكل التيارات الفكرية ، وتطبعها بطابع العصر.

وتكاد تكون هذه هي الظاهرة العامة في كل المجتمعات البشرية ، صراع بين القديم والجديد ، وكفاح بين المنكفئين علي الماضي ، والمتطلعين إلي المستقبل . فالحياة شد وجذب بين من يهرولون إلي الأخذ بكل جديد ، ومن يرفضونه ويقاومونه ، وتلك سنة الحياة ، لا تستقيم بدونها ، لأنه لو خلا المجتمع من أحد الطرفين ، لفسد النظام ، واضطربت نغمات الحياة ، إذ لو طبع الناس كلهم علي تقبل ما هو جديد ، ما ثبت شئ أبدا ، فتضطرب الأمور ، حيث لا يكون هناك عناصر ثابتة ، تضبط وقع الحياة ، وتنظم مسيرتها ، ولو جمد الناس علي ما ورثوه دون تجديد وتطوير لجمدت الحياة ، وفقدت كل ما يمدها

بالحيوية والنشاط ، فتذبل ويموت أفرادها.

ويعتبر انتظام عملية التدافع بين القديم والجديد من الظواهر الصحية في المجتمع ، بل تؤكد وعي المجتمع ، وتبشر بمستقبل باهر له ، إذ انتظام هذا الحوار بين الجديد القادم ، والقديم الراسخ يؤدي إلي أنه لا يثبت من القديم إلا ما كان صالحا ، وموافقاً لطبيعة العصر ، أما ما ارتبطت فائدته بعصور سابقة ، ولم يعد صالحاً لمسيرة الحياة المعاصرة ، فسوف ينحي جانبا ، فلا يلتفت إليه ، فضلاً عن التمسك به ، كذلك لا يضرب من الجديد جذوره في أعماق المجتمع ، ويستقر في ممارسات الناس ، ويتمكن من وعيهم وفكرهم إلا ما أثبتت التجارب ضرورته للمجتمع ، وبرهنت علي أهميته في حياة الناس ، وأكدت الممارسات فاعليته في مسيرة التقدم والإزدهار.

ولا يتحقق هذا إلا إذا كانت حرية التعبير مكفولة للجميع ، بحيث يستطيع كل مفكر أن يتكلم ، ويبحث وهو مطمئن علي نفسه ، ومستقر في بيته وعمله، وإلا طغي اتجاه علي آخر ، فإن ساد القديم جمدت الحياة ، فتخلف المجتمع وضاع في سراديب التاريخ ، وإن طغي الجديد ضاعت الهوية ، وتلاشت الشخصية فضلاً عن الخلط بين النافع والضار ، والتذبذب بين الصالح والطالح .

فما موقف الإسلام من هذه الظواهر العامة في المجتمعات الإنسانية ؟

وكيف يتعامل المتخصصون في الدراسات الإسلامية [رجال الدين] مع ما يبتكره ويخترعه العقل البشري كل يوم ؟.

أيتخذون مكانهم في آخر الطابور ، أم يحاولون اللحاق به ، بعد أن بعدت المسافة بينهم وبينه واضطروا إلي التحرك إلي الأمام ؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة ينبغي أن نبين موقف الإسلام منها من خلال توضيح مبادئه وتعاليمه التي تتعلق بظاهرة التغير والتطور التي هي أساس بناء

الحضارات وتقدم الشعوب.

أنزل الله التشريع الإسلامي علي محمد ﷺ متطابقاً مع نظام الكون ، ومنسجماً مع كل ما يطرأ من تغييرات ، أو يظهر علي سطح الحياة من ظروف متجددة ، وابتكارات متعددة ، ذلك أنه تضمن قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشي مع ما ينبغي أن تكون عليه الحياة من الاستقرار ، أو تتفق مع الظواهر التي يشترك فيها جميع الأجناس البشرية ، وتركت التفاصيل والتفريعات لعقل الإنسان يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقاً لمتطلبات ظروفه المحيطة به بحيث يلبي احتياجات العصر ، وفي الوقت نفسه لا تخرج عن الخط الرئيسي الذي رسمه الإسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع ، أو كدستور يتخذه الناس قاعدة تشريعية أصلية ، ينبثق عنها كل ما يقررونه من قوانين ، وما يرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم.

فالقضايا الكلية في الإسلام هي قواعد التشريع الأساسية التي تصلح لكل شعب ، وتلبي احتياجات كل المجموعات البشرية علي اختلاف ألوانها وأجناسها ، وتتناسب مع كل عصر وبيئة ، إذ يتخذها الجميع أساسا يُستنتج منه أحكام لكل القضايا ، وعلاج لكل المشاكل التي تواجه الإنسان والمجتمعات ، فكانت هذه المبادئ الرئيسية في التشريع أساسا للاجتهاد في مجال الأحكام الشرعية التي بمقتضاها تكونت المذاهب الفقهية ، فزخرت بالأحكام والتفريعات التي كانت منها فروض مقدرة الحدوث في الأزمان المستقبلية.

فكان هذا العمل في مجال التشريع دليلاً علي مرونة الفقة الإسلامي وصلاحيته لمواجهة الأحداث التي تظهر ، نتيجة لديناميكية الحركة في مجالات الحياة المختلفة ، وعنصراً جوهريا في مرونة الإسلام وإمكانية تقبله لكل جديد، والتعامل معه بما لا يخرجه عن المبادئ الأساسية ، فهو - أي الإسلام - نظام يوافق طبيعة الحياة وحركتها المستمرة ، ويتلاءم مع ما تتطلبه من قواعد ثابتة ، تتروم عليها هذه المتغيرات كي لا تنهار أو تتبدد معالمها وسط هذا السيل

الجارف من الأحداث المتجددة .

فقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة رسمت قضايا كلية في مجالات الحياة المتعددة ، نذكر منها علي سبيل المثال قوله تعالي : ﴿ **وأمرهم شورىٰ بينهم** ﴾ [(١)].

فهذه قضية توضح أن الإسلام يحث علي ألا يكون الأمر في المجتمع ديكتاتوريا ، بل ينبغي أن يقوم علي أساس الشوري ، ولم يحدد لهذه الشوري صيغة معينة ، بل تركها لظروف كل عصر ، وطبيعة كل بيئة ، كذلك لم يحدد في قوله تعالي :

﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾[(٢)] .

أنواع الزينة ، أو أشكالها وهيئتها ، بل ترك ذلك لمقتضيات الزمان والمكان، بشرط ألا يكون في ذلك اقتراف لمعصية ، أو تناول خبيث ، كما في قوله تعالي :

﴿ **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ [(٣)].

فهذه وأمثالها أمور كلية وضعت الأساس الذي يحفظ كيان المجتمع ، وحددت الإطار الذي يتحرك بداخله الفقهاء المشرعون لمواجهة متطلبات العصر والبيئة .

وبناءً عليه فقد أقر الإسلام حرية الرأي ، ومنح المسلمين ، بل حثهم علي استخدام العقل في استنباط الأحكام من النصوص المقدسة طبقا لمفهوم العصر، تلبية لحاجات الناس في حياتهم وتعاملهم مع بني البشر ، ولو كان الأمر غير ذلك لجمدت النصوص ، وفقدت مرونتها ، وبالتالي لا تجد لها مكانا في حياة

---

(١) سورة الشوري : ٣٨.

(٢) سورة الأعراف : ٣٢.

(٣) سورة الأعراف : ١٥٧.

الناس ، لأنها لا تلائمها ، ولا تلبى احتياجاتها ، فيصبح احترام الناس لها وتقديسها أشبه بنظرة المجتمع إلي ما تضمه متاحف التاريخ من آثار الماضي ومخلفات الأجداد.

فالإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لأن تعاليمه ومبادئه مسايرة للتغير ، ومتناغمة مع حركة التطور ، ومنسجمة مع وقع الحياة البشرية التي تسرع الخطي في تغيرها وتطورها ، فإذا رفض [رجال الدين] التعامل مع العصر فإن ذلك يرجع إلي عدم فهمهم لأحد الطرفين :

- عمومية النص .
- وضرورة التعامل مع المتغيرات.

فهم ملتزمون بحرفية النص ، ورافضون لكل جديد ، لأنه في نظرهم مناقض لتعاليم الإسلام.

ولو أمعنوا التفكير في تاريخ الفكر الإسلامي لتبين لهم أنه فكر بشري ، نشأ حول النصوص المقدسة، متأثراً بظروف العصر ، وملبياً لحاجاته ومتطلباته، ومن هنا فقد جاء متعدداً في اتجاهاته ، ومتنوعاً في أشكاله وصوره ، ومتعارضاً إلي حد التناقض في مساراته ومراميه ، لأنه حصيلة مجتمع متعدد الأعراق والأجناس ، ومختلفاً في تفكيره ونظرته للحياة ، ومتنوعاً في بنائه الثقافي والفكري . ولم يجمعه إلا وحدة المرجعية ، ألا وهي القرآن الكريم والسنة النبوية ، فالمنطلق واحد ، والأساس مشترك ، أما البناء فقد حكمت فيه ، ووجهته عوامل الزمن ، وتدخلت في تكوينه وتشكيله أفكار الماضي ، وعقائد الأجداد ، وعادات وتقاليد السلف.

وكانت حرية الفكر - التي هي إحدي القيم الهامة في الإسلام ، بل هي أهم مما عداها - وقوداً لهذه الحركة الفكرية والثقافية في المجتمع الإسلامي الأول ، فهي التي هيأت الظروف للاتجاهات الفكرية المتناقضة أن تعيش جنبا

إلي جنب لا يحكمها سوى مقارعة الحجة بالحجة ، ومناقشة الدليل ودحضه بدليل آخر في محاولة لإثبات كلٍ أن رأيه هو الصحيح ، حتي لقد عاشت المتناقضات معا في مدينة واحدة ، بل في مسجد واحد ، يدور بينها المساجلات والمناقشات في حلقات الدرس ، ومجالس الأمراء ووجهاء الدولة ، بل أحياناً كانت المباريات العلمية تعقد أمام العامة والدهماء في ندوات مفتوحة.

كان الحوار المفتوح ، والمناقشات الحرة بوتقة لصهر الحضارات السابقة في الفكر الإسلامي ، إذ لم يكن محرماً أن يناقش كل ما كان موجوداً في المجتمعات الإنسانية من تيارات ثقافية ، وعقائد دينية ، بصرف النظر عن هويتها ومصدرها ، ولهذا فقد ظهر في الساحة وثنيون ، ودهريون ، كما دخل في المناقشات أهل الكتاب بجانب أصحاب الأديان الأخري من بوذيين ، وبراهمانيين ، وزرادشتيين ، وغيرهم من أصحاب المعتقدات الأخري.

كانت تعاليم الإسلام هي المرتكز الأساسي في هذه المساجلات ، وكانت قيمه وأحكامه هي الموجهة لدفة الحوار والمناقشات ، فلم يرفع أحد سيفا لإجبار آخر علي ترك ما يعتقد وحمله علي اعتناق الإسلام ، بل كان الاقتناع هو الفيصل بين المتحاورين ، فمن يقتنع بالإسلام اعتنقه وانخرط في سلك المدافعين عنه ، ومن لم يقتنع استمر في المناقشة ، وتلقي من المسلمين الحجة تلو الأخري لدحض ما عنده من أفكار ، وما لديه من معتقدات .

فكانت حرية التعبير مكفولة للجميع حتي ولو كان مناهضا للإسلام ، ولذا ظهر في المجتمع تيارات شتي ، كما وجد بين الفقهاء وعلماء الإسلام المتشددون والنصيون ، بجانب الليبراليون وأصحاب الاتجاهات المنفتحة علي الثقافات الأخري ، نعم ، حدثت احتكاكات ومصادمات بين هؤلاء وأولئك بلغت في حالات استثنائية حد الإيذاء البدني ، لكن ذلك لم يصل إلي حد التسلط علي مسيرة الفكر ، ومنع المخالف من التعبير عن رأيه أو محاكمته ، إلا في حالات فردية لم يكن الدافع إليها دينيا ، بل كان سياسيا ، أو تدخلت

فيه الغوغائية ، ثم لم تلبث أن اختفت وطواها النسيان .

فإذا أراد المسلمون اليوم الخروج من مأزق التخلف الجاثم علي صدورهم في مختلف مناحي الحياة ، فيجب عليهم أن ينطلقوا من نفس منطلق أسلافهم، ألا وهو سماع الرأي الآخر ومناقشته دون تهديد ، أو تلويح ، والدفاع عن حرية الآخرين في التعبير عن أفكارهم ومعتقداتهم ، حتي ولو كانت مخالفة لما عليه جمهور المسلمين ، لأن من أهم مبادئ الإسلام - إن لم يكن أهمها - عدم حمل الناس بالإكراه علي اعتناق ما يرفضونه ، حتي ولو كان الإيمان بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، امتثالا لأمر الله في قوله تعالي :

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ [١].

وقوله :

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين ﴾ [٢].

فليس للمسلمين حق مصادرة الأفكار ، ولا محاربة من يعارض الإسلام بالفكر ، بل عليهم مناقشته بالحجة والدليل ، فإن لم يقتنع تركوه وشأنه ما دام لا يرفع سلاحاً ضد المسلمين ، ولا يدبر مؤامرات للانقضاض علي المجتمع الإسلامي ، فالمجادلة بالحسني هي أساس الدعوة إلي الإسلام .

﴿ ادع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [٣].

فإن لم يستجيبوا فليس علينا هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء .

* * *

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .
(٢) سورة يونس : ٩٩ .
(١) سورة النحل : ١٢٥ .

من يحق له أن يتحدث باسم الإسلام

ينفرد الإسلام عن غيره من الأديان بأنه لا يقر الطبقية ، فالناس في المجتمع الإسلامي سواسيه في الحقوق والواجبات ، لافضل لعربي علي عجمي ، ولا لأبيض علي أحمر إلا بالتقوي ، ولا يملك أحد من البشر مقايس التقوي ، لأنها من الأمور التي لا يطلع عليها أحد إلا اللهسبحانه وتعالي ، غير أن الحياة لا تسير إلا إذا وضع كل في موضعه ، طبقاً لإمكاناته وتخصصاته فلا يمارس المهندس مهنة الطبيب ولا يتصدي الطبيب للشئون الهندسية أي أنه لا يقوم أحد بعمل إلا إذا كان قد أتقن - عن طريق التعليم والتدريب - قواعده وألم بكل جزئياته وأحاط بالمعرفة اللازمة لممارسة هذا العمل وصدق الله إذ يقول :

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾.

فخوض الإنسان فيما لا يتقنه إهدار للتخصصات وضياع للجهد والمال وتخريب لمنظومة الحياة وبالتالي فهو يؤدي إلي التخبط والبلبلة وفقد الثقة في مصادر الإنتاج والمعرفة لأن كلاً يعرف كل شئ ، فإذا بحثت عن الحقيقة ، فهيهات أن تصل إليها ، لأنك لا تستطيع أن تفرق بين من يعرفها وبين من يدعي أنه يعرفها .

ومن هنا فقد حذر الإسلام من ادعاء المعرفة ، ونهي عن الخوض فيما هو مجهول ، فلا يجوز لأحد - إسلامياً - أن يتصدي لعمل شئ ما ، إلا إذا كان متأكداً من الإلمام به ، وقادراً علي تأديته علي أكمل وجه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » ، ولا يستطيع أحد التفريق بين ما هو خير وما شر ، إلا إذا كان عالماً بالموضوع ، وملماً به ، ومتمكناً من كل ما يتعلق به ، بالقدر الذي يؤهله لإتقان ما يقوم به : « إن الله يحب إذا عمل

أحدكم عملا أن يتقنه » .

فإذا ساد هذا المعني في المجتمع ، انتظمت خطواته ، وتلاقت أنشطته المختلفة في منظومته يكمل بعضها بعضاً ، فتتلاقح في نغمات متناسقة ، و تتدافع في إطار تنافسي للوصول إلي الأصلح ، فيأخذ مكانه في مسيرة التقدم ويتفاعل مع مثيله في بناء صرح الحضارة ، وتشيد منارة التقدم .

أما إذا خاض كل فيما لا يعرف وادعي ما ليس له ، انزلق المجتمع إلي متاهات لا يعرف المرء فيها طريقا ولا يري منها مخرجاً ولا يسمع إلا أصواتاً متداخلة ، ونغمات متنافرة ، وإدعاءات ممجوجة ، تتقاذفه يمينا وشمالا ، وتصب في أذنه تفسيرات وتأويلات تقذف به في مهاوي الشك والقنوط حينا ، وتبعث عنده الأمل في اليقين أحياناً أخري ، ولهذا ينبغي علي صاحب القرار أن يميز المتخصصين في الدراسات الإسلامية ، بحيث يُعرفون للجماهير ، فلا يتطفل الجاهلون في مجال الفتوي الدينية ، فيضلوا ، ويضلوا ، ولا يتصدر أنصاف العلماء لتدريس العلوم الشرعية ، كي تصان التعاليم الإسلامية من شطحات المفكرين ، وتبقي الأحكام بعيدة عن سقطات غير المتخصصين.

كيف يُميَّـــزون ؟

ينقسم العمل في مجال الدراسات الدينية إلي قسمين :

الأول : الوعظ والإرشاد والفتوي وإمامة الصلاة ، وتعليم الناس مبادئ الدين وأحكامه .

الثاني : البحوث الأكاديمية التي يهتم الباحثون فيها بمنطوق النصوص ومفهومها ، وصحة الرواية وفسادها ، كما يركزون فيها علي استنباط الأحكام، مع مراعاة طبيعة العصر - هكذا يجب أن يكون - ومقتضياته ، بما يلبي ضرورات الحياة في إطار مجتمع دولي ، يركض حثيثاً علي طريق العلم والتكنولوجيا ، ويسرع الخطى في

ساحات التقدم والازدهار .

ومن الأمور البدهية أن لكل قسم رجاله ، من حيث التأهيل والتدريب ، والإمكانات ، فمن يعمل في مجال القسم الأول ينبغي أن يؤهل في مؤسسات علمية خاصة ، كالأزهر وما يماثله ، بشرط أن تكون مناهج التأهيل شاملة لكل ما يحتاج اليه الداعية من علوم وثقافة وتدريب علي وسائل العصر في مخاطبة الجماهير ، ومواجهة مشاكل المجتمعات المعاصرة ، ولا يتحقق الهدف كاملاً إلا إذا كان اختيار العناصر المنفذة لبرنامج التأهيل علي وعي تام بمتطلبات العصر ، والاحتياجات اللازمة لمواجهة التيارات الفكرية التي تموج بها المجتمعات ، سواء كانت مجتمعات إسلامية أو غير إسلامية ، بالإضافة إلي مراعاة الدقة في اختيار الدارسين لهذا المنهج ، حتي لا يخرج إلي الساحة عناصر عاجزة عن الإتصال بالجماهير بسبب قصورهم الذاتي ، أو خلل في المنهج ، أو عدم وضوح الرؤية عند من يتصدي لتأهيلهم .

ولكي لا يدخل الساحة مدعون ، يبلبلون الأفكار ، ويخدعون الجماهير ، ينبغي أن يكون للدعاة زي خاص بهم لا يشاركهم فيه أحد ، حماية لهذا المجال من الانتهازيين ، وصونا لمبادئ الإسلام من أن يشوهها للناس جاهل ، أو يشيع الفتنة في المجتمع حقود ، أو يتطاول عدو علي مبادئ الإسلام ، فيعلمها لشبابنا بأسلوب يبعدهم عن روح الإسلام الصافية الخلاقة ، فيدمر حياتهم بالسلبية والإتكالية ، والاستغراق في عالم الأساطير والخرافات .

وليس هذا الاقتراح بدعاً من القول ، بل هو قائم علي أساس منطقي ، وله مبررات عقلية ، ذلك أن دواعي أمن الدولة اقتضت أن يرتدي أفراد القوات المسلحة ورجال الشرطة زياً خاصاً بهم ، حتي لا يدخل فيهم من ليس منهم ، فيرتكب حماقات تضر بأمن الدولة ، أو يعتدي علي أمن المواطنين وحقوقهم ، كذلك الحال بالنسبة لأهم جانب يؤثر في حياة الناس ، ألا وهو الدين ، إذ لو فسدت الثقافة الدينية ، لاختلت حياة الناس ، واضطربت أحوالهم ، وضاع

الاستقرار النفسي والأمن الروحي ، مما يؤثر علي إنتاجهم ، ويعوق مسيرتهم نحو التقدم والازدهار ، فتأمين منابع الثقافة الدينية أمر ضروري بل هو لا يقل أهمية عن حماية الدولة من الأعداء ، أو السهر علي أمن المواطنين من المخربين، ولهذا ينبغي علي صاحب القرار ألا يتواني في إصدار قرار يحدد الزي الخاص بالدعاة والأئمة وخطباء المساجد ، بحيث يجرم من يتعدي عليهم، فيتزيي بزيهم .

ألا يؤدي هذا إلي تكوين طبقة ، تميز الإسلام عن غيره بعدم وجودها ، ألا وهي طبقة رجال الدين ؟؟ .

لا ، لأن مهمتها تختلف عن مثيلاتها في الأديان الأخري ، فهم لا يجوز لهم التشريع كما يشرع أمثالهم في المجتمعات غير الإسلامية ، وليسوا مقدسين كما يقدس أتباع الأديان الأخري رجال الدين عندهم ، فالوعاظ والأئمة في الإسلام لا يختلفون عن أي مسلم آخر في المجتمع ، فلا يفضلون علي غيرهم إلا بالمقياس الديني العام ، ألا وهو التقوي ، فقد يكون هناك مسلم لا يشتغل بالثقافة الدينية ، وتقواه ترفعه إلي درجة أعلي من الإمام ، أو الواعظ . إذن ، فتميزهم بزي خاص لا يعطيهم حصانة ، ولا يرفع درجاتهم بين المسلمين إلي مرتبة القداسة ، وليس لهم في المجتمع إلا احترام الناس لهم باعتبارهم خداماً لكتاب الله وسنة رسوله ، كما يكنّ التلميذ الاحترام لأستاذه ،أياً كانت المادة التي يقوم الأستاذ بتدريسها للتلميذ .

وكما يمنع غير المتخصص في الدراسات الإسلامية من ارتداء زي الأئمة والوعاظ ، ومن يتصدرون لتثقيف المسلمين وتفقيههم في الدين ، كذلك لا يجوز للمتخصصين القيام بأعمالهم ، إلا إذا ارتدوا الزي الذي يخصص لهم. مثلهم في ذلك مثل رجال القوات المسلحة وأفراد الشرطة .

وليس معني هذا أن للإسلام زياً خاصا ، يطلق عليه « الزى الإسلامي » ، كما يدعي ذلك بعض الذين أقحموا أنفسهم في مجال التحدث باسم الإسلام،

فالرسول ﷺ لبس جميع أردية عصره ، حتي الجبة الشامية ، ويحكي أنها كانت ضيقة عند المعصم ، فكان الرسول ﷺ يخلع يده اليمني عند الوضوء فيغسلها ثم يلبسها ، وبعد ذلك يخلع اليسرى فيغسلها ، ثم يلبسها . وعدم تخصيص زى للمسلمين يدل علي أن الإسلام دين عالمي ، إذ تتفق عالميته مع عدم تخصيص زي معين للمؤمنين به ، ذلك أن طبيعة الزي - وشكله - تتعلق بالطقس ، فما يرتديه المرء في المناطق الحارة لا يمكن لسكان المناطق الباردة ارتداؤه ، وإلا تجمد من البرد ، فلو سلمنا جدلا - بأن الجلبات الأبيض «القصير» هو الزي الإسلامي ، وألزمنا كل من يعتنق الإسلام بارتدائه ، لانحصرت دائرة المؤمنين في سكان المناطق الحارة ، لأن تعاليمه - علي الأقل فيما يتعلق بالزي - تلائمهم وحدهم ، ولا تتمشي مع متطلبات طقس المناطق الباردة ، إذ لو اعتنق الإسلام أحد سكان هذه المناطق ، لكان لزاماً عليه - بناءً علي رأي من يخص الإسلام بزي معين - أن يرتدي هذا الزي وهو « الجلباب الأبيض القصير » وفي هذه الحالة سوف يموت من شدة البرد بعد فترة قصيرة لا تتعدي بضع ساعات ، وبذلك لا يكون للإسلام مكان في هذه المناطق ، لأن من يلتزم بتعاليمه في هذا المجال ، سوف يموت ، وبالتالي لا يجرؤ أحد . . . حتي علي التفكير في اعتناقه ، ويترتب علي هذا أن يقتنع من يسمع من هؤلاء المنادين بتحديد زي خاص بالإسلام ، أن هذا الدين لا يصلح إلا لسكان المناطق التي يتلاءم طقسها مع هذا الزي.

ألا يعد هذا متناقضا مع الدعوي إلي تحديد زي خاص لمن يقومون بمهمة التثيف الديني ، كالأئمة والوعاظ وخطباء المساجد ؟؟.

لا ، لأن هناك فرقاً كبيراً بين الاتفاق علي تحديد زى خاص - أياً كان شكله ولونه وهيئته - لمن يعملون في حقل الدعوة الإسلامية ، وبين أن يدعي أن للإسلام زيا خاصا به ، لأن المجتمع في الحالة الأولي ليس ملزماً بنوع معين من أشكال الملابس ، فهو حر في اختياره طبقا لظروف الزمان والمكان ،

بخلاف الوضع فيما لو اعتبره شكلاً مقدساً لا يحيد عنه ، كذلك يمكن تغييره في أي وقت إن اقتضت الظروف ذلك ، بخلاف ما لو كان الزاماً دينياً ، فلا يجوز تغييره ، وإلا ارتكب إثماً يعاقب عليه.

هل يقبل الأئمة والوعاظ وخطباء المساجد ارتداء هذا الزي عن طيب خاطر، خاصة وأن الإتجاه العام يمكن أن يوجه إلي اختيار ما هو معروف لرجال الدين، وهو العمامة والجبة (أو ما يطلق عليه «الكاكولا») ، وهو لباس معوق للحركة وسط هذا التدافع في الشارع المزدحم ، وفي وسائل المواصلات الراهنة، التي يشترط فيمن يستخدمها أن يكون سريع الحركة ، بحيث لا تقيدها جبة، ولا يحد من انطلاقها عمامة فوق الرأس ؟؟؟.

أعتقد أنهم سيرحبون به لو اقتصر علي طائفتهم ، فذلك سيسهل عليهم كثيراً مما يمكن أن يعاني منه من يرتدي مثل هذا اللباس ، فالمساعدة ستقدم لهم في كل مكان ، وستزلل لهم الصعاب ، أينما حلوا ، لأن الناس سينظرون إليهم نظرة إجلال واحترام ، مع العلم بأنه ليس من اللازم أن يرتدوا هذا الزي في كل الأوقات ، بل يكفي أن يرتدوه أثناء تأدية عملهم ، وما عدا ذلك فهم أحرار فيما يرتدون .



أهم المراجع

١- د/ محمود الكردي : التخلف ومشكلات المجتمع المصري ، دار المعارف ١٩٧٩م.

٢- د/ مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي - سيكولوجية الإنسان المقهور / معهد الإنماء العربي - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٨٦م.

٣- د/ عمرو محيي الدين : التخلف والتنمية ، دار النهضة العربيه ، بيروت ١٩٧٥م.

٤- عبد الله القصبجي : العالم ليس عقلاً : مطابع دار الغد الطبعة الأولي ١٩٦٣م.

٥- الشيخ محمد أبو زهرة : خاتم النبيين ﷺ ، الدوحة ١٩٨٦م.

٦- أبو الأعلي المودودي : الحكم والخلافة ، دار القلم - الكويت ، الطبعة الأولي ، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٧- فرانسوا بورجا : الإسلام السياسي ، ترجمة د/ لورين زكري ، دار العالم الثالث القاهرة ١٩٩٣م.

٨- أحمد مصطفي أبو زيد : التحدي الثقافي ، بحث قدم للندوة الفكرية الرابعة لرؤساء ومديري الجامعات في الدول الأعضاء بمكتب التربية العربي لدول الخليج ، التي عقدت في الدوحة في الفترة من ٢٣ - ٢٦ ربيع الأول ١٤١٠هـ ٢٢ - ٢٥ أكتوبر ١٩٨٩م.

٩- الأمير شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ ، دار البشير، القاهرة ١٩٨٥م.

١٠- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، بيروت ١٩٨٦م.

١١- الشيخ محمد الغزالي : هموم داعية ، دار الحرمين ، الدوحة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١٢- محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٦م.

١٣- مركز دراسات الوحدة العربية : الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي : بحوث بأقلام نخبة من مفكري العالم العربي - بيروت ١٩٨٩م.

* * *

الفهرس

❊ ❊ ❊

الإنتاج العلمى

للأستاذ الدكتور : محمد شامة

(١) الكتب :

١ - بين الإسلام والمسيحية .
٢ - بحوث فى علم الأديان المقارن .
٣ - الإسلام قوة الغد العالمية (مترجم من الألمانية)
٤ - الإسلام فى الفكر الأوروبى (عرض وتحليل لكتاب صدر باللغة الألمانية تحت عنوان : الإسلام قوة عالمية متحركة) .
٥ - الخطر الشيوعى فى بلاد الإسلام .
٦ - أثر البيئة فى ظهور القاديانية .
٧ - الإسلام كما ينبغى أن نعرفه .
٨ - الإسلام دين ودولة .
٩ - فى رحاب القرآن .
١٠ - الإسلام طهارة ونقاء .
١١ - حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (مترجم من الألمانية) .
١٢ - الحسد فى القرآن الكريم بين الحقيقة والأسطورة .
١٣ - محاضرات فى علم الخطابة النظرية والعملية (بالاشتراك مع آخرين).
١٤ - عقائد وتيارات فكرية معاصرة (بالاشتراك مع آخرين) .
١٥ - التخلف فى العالم الإسلامى بين الداء والدواء .
١٦ - الإسلام تهذيب وتقويم .

) بحوث نشرت فى دوريات علمية ومجلات متخصصة :

١ - فلسفة الزواج فى الأديان « باللغة الألمانية »
٢ - الرازى مفسرا وفيلسوفا « " " »
٣ - العبادات فى الإسلام « " " »
٤ - وضع المرأة فى الإسلام « " " »

٥ ـ الجزاء الأخروى
٦ ـ تحريف الكتب المقدسة
٧ ـ تدريس الأديان فى الجامعة
٨ ـ قضية الصلب بين الإسلام والمسيحية
٩ ـ تعدد الزوجات فى الأديان
١٠ ـ الخطر الشيوعى فى بلاد الإسلام
١١ ـ بحوث الفضاء فى ضوء القرآن والسنة
١٢ ـ الرسالات السماوية بين التطور والتجديد
١٣ ـ موقف الفكر الإسلامى من الفلسفه اليونانية
١٤ ـ التطور والتجديد فى الكتب المقدسة
١٥ ـ حوار مع المستشرقين
١٦ ـ موقف الأزهر من المتغيرات الفكرية
١٧ ـ دور مؤسسات البحث العلمى فى المجتمع
١٨ ـ عالمية الإسلام
١٩ ـ الرسل والأنبياء فى الكتب المقدسة
٢٠ ـ رأى الإسلام فى الديمقراطيات المعاصرة
٢١ ـ الضمير فى الشريعة الإسلامية
٢٢ ـ العقيدة فى الإسلام
٢٣ ـ حتمية تطبيق الشريعة الإسلامية
٢٤ ـ منهج الإسلام فى بناء العقيدة
٢٥ ـ الاستقرار فى الجماعة
٢٦ ـ حرية العقيدة
٢٧ – الإسلام يحرر الإنسان
٢٨ –العقيدة – مفهومها وتطورها .